تاريخ



المغرب العربي في العصر الإسلامي

أ.د. عبد الرحمن حسين العزاوي





تاريخ المغرب العربي
في العصر الإسلامي

تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي

أ. د. عبد الرحمن حسين العزاوي







الطَّبعَة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



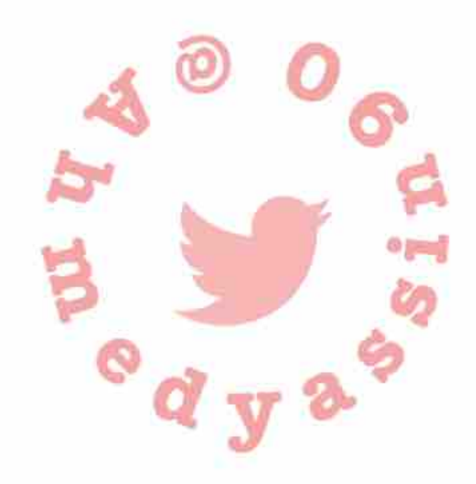
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2240 /6/ 2010)

961
العزاوي ، عبد المحمن حسين
تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي / عبد الرحمن حسين العزاوي
عمان : دار الخليج ، 2010
ر.أ.: (2240 / 6/ 2010)
الواصفات : تاريخ المغرب العربي

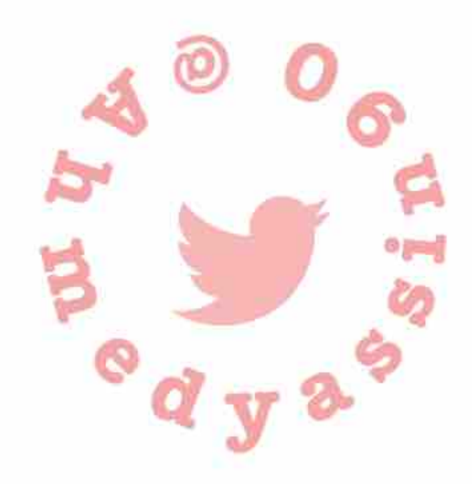
تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر
هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



تلفاكس: ٤٦٤٧٥٥٩ ٦ ٠٠٩٦٢
ص.ب: ١٨٤٠٣٤ عمان ١١١١٨ الأردن
e-mail: daralkhalij@hotmail.com


@Ahmedyassin90

المحتويات


@Ahmedyassin90

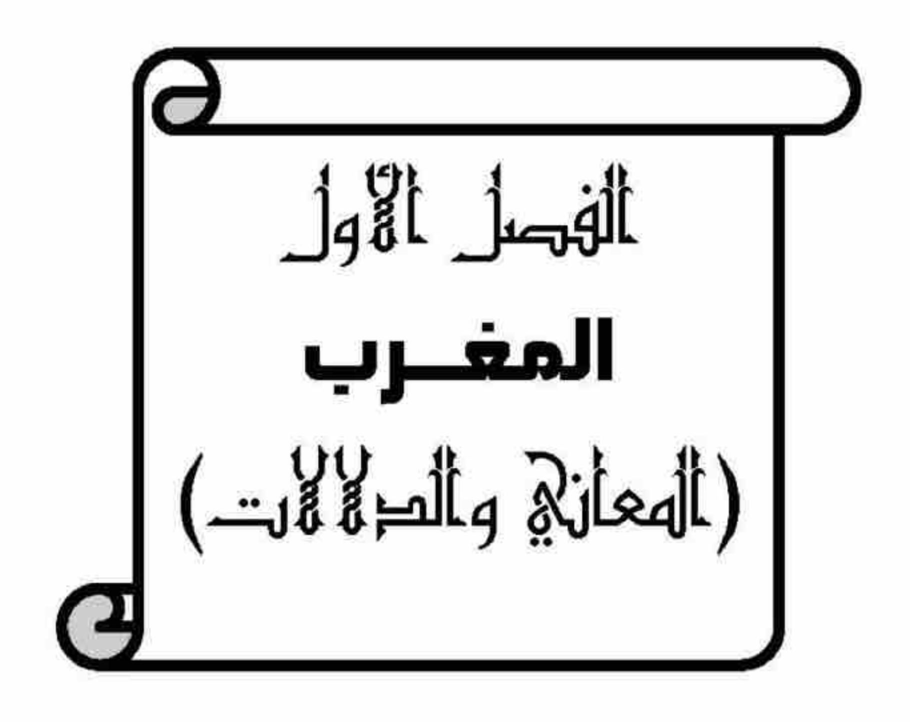
مُقَدِّمَة

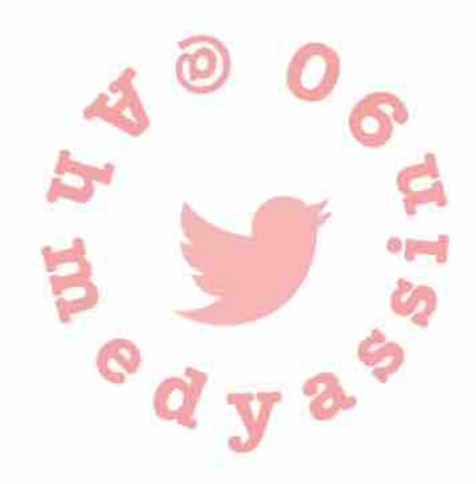
تعد دراسة (تاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي) مهمة وحيوية في إطار رؤية عصرية وحدودية لتاريخ الوطن العربي، مع ملاحظة أن ما اصطلح على تقسيم (المغرب) إلى ثلاثة أقسام – المغرب الأدنى (افريقيا) تونس، والمغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى (دولة المغرب) مجرد تقسيم اصطلاحي أوجبته الضرورات الإدارية أو البحثية وأحياناً السياسية، لأن المغرب العربي وحدة متماسكة تجلت مظاهرها في شتى المناحي التاريخية والجغرافية والبشرية والاقتصادية، والآمال والتطلعات الإنسانسية المشروعة، فضمن هذا السياق تجلت أهمية دراسة (المغرب العربي) من خلال المعاني والدلالات لمصطلح المغرب، وذلك بتزويد القارئ بلمحة تاريخية عن هذه المنطقة التي تسمى أحياناً كثيرة (شمال افريقيا) مع إطلالة توثيقية لمراحل الفتح العربي الإسلامي له، وكذلك الوقوف على أبرز الإمارات أو الكيانات التي تشكلت أو ظهرت في هذه المنطقة. وهذه الإمارات تشمل (الأدارسة، والأغالبة، والعُبَيْدية، والمرابطية، والموحدية، والحفصية، وغيرها)، مع توضيح أهم الملامح الحضارية لبلاد المغرب العربي.

لذا جاءت أهمية الكتابة عن هذا الموضوع (الحيوي) بأسلوب متزن وصورة موضوعية لاستفادة القارئ والباحث والمهتم على حد سواء، ولما يخدم حركة التاريخ العربي، والحضارة العربية الإسلامية.

المؤلف




الفصل الأول
المغـرب
(المعاني والدلالات)


@Ahmedyassin90

الفصل الأول

المغــرب .. المعاني والدلالات

أولاً: المغرب ... لمحة تاريخية:

لقد تعرضت سواحل وبلدان شمال افريقيا (أو ما يعرف – المَغرب العربي) لهجرات ومؤثرات خارجية، منها: التوسع الفينيقي في هذه المنطقة، فأقام لأول مرة علاقات وصلات مباشرة بين شرقي البحر المتوسط[1] وبين هذه البلاد.

والفينيقيون فرع من الكنعانيين سكان (فلسطين) الأصليين ثم تحركوا إلى (غرب الأردن) ومنه تسربوا إلى سواحل (سورية) و (لبنان) حيث استقروا هناك في (ق ٢٨ ق.م) ففينيقيا وكنعان، شيء واحد إلا أن الكلمة الأولى تعود إلى أصل يوناني، بينما تعود الثانية إلى أصل جزري (سامي) ومن المفيد أن مدلول الكلمتين واحد تقريباً، فكلمة (كنعان) الجَزَرية تعني – اللون الأحمر، وكلمة (فينكس Phoenix) التي منها (فينيقيا) معناها في اللغة اليونانية – اللون الأحمر. وذلك لأن اليونان حينما اتصلوا بسواحل سورية ولبنان أطلقوا على سكان تلك النواحي اسم (فينكس) أي (اللون الأحمر) لأن هؤلاء القوم تخصصوا في صناعة (الصبغة الحمراء) و (الملابس الأرجوانية الزاهية).

---

(١) ويسمى أيضاً: البحر الشامي، البحر الرومي، بحر تيران، والبحر الأبيض المتوسط (خطأ جغرافياً وواقعياً).

أسس الفينيقيون دولتهم البحرية عند سفوح جبال لبنان على الشريط الساحلي الشرقي لحوض البحر المتوسط، ومن أهم مدنهم (عكا) و (جُبَيْل أو جوبلة Biblos) و(بيروت) و(صيدا) ومن ثم (صور) وهي ملكة المدائن الفينيقية. وقد تمكنت هذه (الدويلة الفينيقية الصغيرة) بحكم موقعها الجغرافي المتميز بين شعوب الشرق أن تتلقف وتتلقى مختلف التيارات الثقافية للحضارات العراقية القديمة، وأن تقوم بنشرها بين سائر الأمم القديمة، كذلك كان وضعها المكاني في مساحة ضيقة من الأرض على ساحل البحر، من العوامل التي دفعت بسكانها إلى البحث عن متسع لهم عبر البحار لا اليابسة، واتخاذ التجارة وسيلة للحياة، وكان هذا الحرص على التجارة هو الذي حمل الفينيقيين على الاتجاه صوب الساحل الغربي والساحل الجنوبي لحوض البحر المتوسط وكشف المحيط الأطلسي[1] في (الألف الثانية قبل الميلاد) فكانوا بذلك أولى الموجات البشرية التاريخية التي وفدت على ساحل شمال افريقيا (المغرب العربي).

لقد تم التوسع الفينيقي في هذه المنطقة على مرحلتين:

- الأولى: وهي مرحلة الاكتشافات والمبادلات التجارية.
- الثانية: هي مرحلة التعمير وإقامة القواعد والمراكز لغرض المبادلات التجارية بصورة مستمرة دائمة وذلك في (ق ١٢ ق.م).

---

(١) ويسمى أيضاً: البحر المحيط، البحر المحيط الرومي، البحر الأخضر، البحر المظلم، بحر الظلمة، بحر الظلمات واقيانس.

وكانت هذه (المراكز الفينيقية) ساحلية في العادة، ويسكنها (المعمرون الفينيقيون) الذين كان هدفهم الأساس هو التجارة مع سكان الأراضي الداخلية، دون التدخل في شؤونهم الخاصة، أو التسلط عليهم سياسياً. ولقد ربط الفينيقيون بين هذه القواعد التجارية بأسطول بحري ضخم يعمل على نقل السلّع المختلفة وحمايتها.

* ومن أهم المراكز التجارية التي أنشأها الفينيقيون، هي:

(مدينة لكسوس Lixus) التي حلت محلها (مدينة العرائش الإسلامية) الحالية، و(مدينة تنجي Tingi) التي هي (طنجة) الحالية، و(روسادير) الهي هي (مليلية) الحالية.

وفي حوالي سنة (٨٠٣[1] ق.م) أسس الفينيقيون في (المغرب الأدنى) أو (افريقيا) مركزهم المشهور (قرطاجة Quart Hadasht) أي (المدينة الجديدة). ولم تلبث هذه المحطة الجديدة أن نمت وازدهرت، وحلت محل أمها (فينيقيا) كقوة تجارية مسيطرة على منطقة العُدْوَتيْن (المغربية والإسبانية) ومتحكمة في المضيق وما وراءه في البلاد الإفريقية الغربية المُطلة على المحيط الأطلسي.

وفي المغرب الأقصى، صارت مدينة ليكسوس (العرائش) مركزاً مهماً لتجارة ذهب السودان، وفضة جبال أطلس، بالإضافة إلى تجارة الأسماك المحفوظة.

---

(١) وذكر أنها أسست سنة (٨١٤ ق.م) وسقطت سنة (١٤٦ ق.م).

أما الناحية الثقافية، فأهم ما يلاحظ فيها هو انتشار اللغة الفينيقية بين (البربر) سكان شمال افريقيا، وقد يؤيد ذلك أن اللغات (اللاتينية واليونانية) لم تستطع - فيما بعد - محو هذه اللغة من البلاد المغربية، ولعل هذه الظاهرة هي التي ساعدت على انتشار (اللغة العربية) بين (البربر) بعد الفتح العربي الإسلامي، خصوصاً وأن هناك أوجه شبه كثيرة بين اللغتين (العربية والفينيقية).

ولقد اقترن اسم الفينيقيون بتطوير (حروف المعجم) أو (حروف الهجاء)، والواقع أن الفينيقيين نقلوا هذه الحروف عن الحضارات العراقية المجاورة لهم كالسومريين والبابليين والآشوريين ثم ادخلوا عليها بعض التحسينات والإضافات واستعملوها في تجاراتهم ومعاملاتهم، فانتشرت عن طريقهم وبوساطتهم بين الأمم الأخرى ولا سيما (اليونان) الذين أضافوا إليها بعض (حروف العلة) ثم نشروها بدورهم في أوروبا.

هذا وإلى الفينيقيين يعود الفضل في تعليم سكان هذه المنطقة بعض الصناعات المحلية والأساليب الفلاحية ولا سيما طريقة غرس الأشجار. مما كان له الفضل في جعل المنطقة خضراء وارفة الظلال.

واستمر القرطاجيون منذ (ق ٨ ق.م) إلى (ق ٤ ق.م) مسيطرين على بلاد شمال أفريقيا، محتكرين اقتصادياتها، ولم يسمحوا لأية دولة أخرى مشاركتهم في استغلال تلك المناطق. على أنه يلاحظ في (ق ٤ ق.م) بعض التساهل في (السياسة القرطاجية عندما هاجم الإسكندر المقدوني) بلاد المشرق،

وقضى على المدينة الأم (صور) سنة (٣٣٢ ق.م) إذ خشيت ابنتها (قرطاجة) على سلامة ممتلكاتها الغربية من هذه الحركة التوسعية (اليونانية) فسمحت لبعض سفنهم مثل سفن المستعمرة اليونانية (ماساليا Massalia) أو (مرسيليا) بالمرور عبر المضيق.

وفي (ق ٣ ق.م) بدأ نجم قرطاجة في الأفول عندما اصطدمت مصالحها بمطامع (روما) الفنية، ودخلت معها في صراع طويل عرف باسم (الحروب البونية) أو (الحروب الفينيقية Bellum Punicum) ما بين (٢٦٤ – ١٤٦ ق.م). ولقد انتهى هذا الصراع بعدم انتصار جيوش قرطاجة وانتحار القائد (هانيبال) وبتدمير (قرطاجة) وتحويلها إلى ولاية رومانية سنة (١٤٦ ق.م). وهكذا حل (الرومان) محل (الفينيقيين) في شمال افريقيا تدريجياً، وقسموه إلى ثلاث ولايات:

١. افريقيا (المغرب الأدنى).

٢. نوميديا (المغرب الأوسط).

٣. موريتانيا (المغرب الأقصى).

وفي سنة (٤٢م) قسمت (موريتانيا) إلى ولايتين:

أ. موريتانيا القيصرية: وتشمل الجزء الغربي من الجزائر، وأهمها منطقة (وهران Oran).

ب. موريتانيا الطنجية: وهي عبارة عن المثلث الشمالي من المغرب الأقصى، وتشمل مدن (طنجة) و (تمودا Tamuda) اندرست، وكانت تقع غربي

تطوان، و (تسلا Sala) عند مصب نهر أبي الرقراق على المحيط. ثم مدينة (وليلي Oulili أو Volubilis) جنوباً في أسفل جبل زَرْهون، ومازالت بقاياها موجودة بالقرب من مدينة مكناس.

ويلاحظ أن كلمة (موريتانيا) تعني (بلاد المور) وهي الكلمة التي أطلقها الرومان على (المغاربة) في أول الأمر، ثم لم تلبث أن صارت كلمة عامة في معظم اللغات الأوروبية وتعني (المسلمين) (Moros)، و(Maures)، و(Moors).

ولقد ربط (الرومان) بين هذه المدن المغربية بطرق معبدة ومزودة بالحصون، والأبراج، والأسوار، والخنادق، والمحاربين، وقد عرف هذا الخط باسم (خط ليمس Limes) ومازالت بعض آثاره باقية بالقرب من مدينة الرباط (على بعد ٦كم في طريق الدار البيضاء).

ولعل من المظاهر البارزة، انتشار (الديانة المسيحية)، فمن الملاحظ من شواهد المقابر والآثار الباقية أن (النصرانية) انتشرت في مدينتي (طنجة) و(وليلى) في آواخر ق ٣ وأوائل ق٤م، ثم أخذت بعد ذلك في الانتشار جنوباً حتى جبال أطلس.

استمر (الحكم الروماني) في شمال افريقيا[1]، قروناً عديدة. وفي أوائل (٥ ق.م) تعرضت (الإمبراطورية الرومانية) لهجرات (جرمانية) واسعة النطاق أتت من سواحل بحر البلطيق، وأراضي الراين والدانوب.

---

(١) تفاصيل ذلك – الصوفي، د. خالد/ تاريخ العرب في الأندلس، منشورات جامعة قاريونس/ بنغازي – ليبيا ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ١/ ١١ وما بعدها.

وينقسم هؤلاء (الجرمان) إلى مجموعتين رئيسيتين: (التيوتون، والقوط).

أما التيوتون: فيشملون شعوب (الفرنجة، الألمان، الواندال، البرجنديين، واللومبارديين). وأما القوط: فيشملون (القوط الغربيين، والقوط الشرقيين).

في حين توالت على (إسبانيا) بعد موجة (الواندال) هجرات القبائل (الجرمانية) الأخرى، وأهمها قبائل القوط الغربيين الذين أخذوا في مهاجمة (الواندال) والضغط عليهم، وأمام هذا الهجوم القوطي، رأى ملك الواندال (جنسريك Genseric) أن يهاجر بقومه إلى شمال افريقيا. وفي سنة (٤٢٩م) عبر بجيوشه التي تبلغ (ثمانين ألفاً) مضيق الزقاق، ونزل في (العُدْوَة المغربية).

ولم يستطع (الحاكم الروماني) هناك الوقوف في وجه (جنسريك)، فانسحب عائداً إلى بلاده، بينما استولى (جنسريك) على نوميديا (الجزائر) وافريقيا (تونس) سنة (٤٣٩م)، وهكذا سيطر (الوندال) على المغرب الكبير.

واستمر (الواندال) في المغرب ما يقرب من (مائة سنة) تقريباً، اندمجوا فيها مع (المغاربة) لدرجة أن بعض المؤرخين يرجعون صفة (الشقرة) التي يتميز بها عدد كبير من المغاربة إلى هذه الموجة الواندالية الجرمانية.

وفي سنة (٥٣٣م) انتهى حكم (الواندال) في شمال افريقيا على يد القائد البيزنطي (بلزاريوس Belisarios) قائد الإمبراطور (جستِنيان).

واستمروا على هذا الحال مدة (سبعين) سنة عندما تمكن (القوط) من طردهم من بعض ثغور (العُدْوَة المغربية) لضمان سلامة دولتهم من أي هجوم يأتيهم من الجنوب.

ثانياً: المغرب .. في ظلال المسلمين:

الغرْبُ والمَغْرب: لفْظٌ يُراد به كل ما هو يقابل الشَرْق أو المشرق من بلد ما.

وقد تباينت آراء المؤرخين والجغرافيين واللغويين[1] العرب المسلمين في تحديد لفظ (المَغْرب العربي) ومدلوله.

فجعله البعض يشمل بلاد شمال افريقيا. وجعله البعض الآخر يشمل بلاد شمال إفريقيا بالإضافة إلى الأندلس (اسبانيا الإسلامية) وجميع البلدان الإسلامية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، مثل (صقلية، جنوبي إيطاليا، جزيرتي سردانيا وقورسيقا، وجزر البليار أو الجزائر الشرقية (مَيُورقَة، منَورْقة، واليابسة). والبعض الثالث أضاف (مصر) ضمن هذا التقسيم، أي جعلها ضمن بلدان المغرب.

وفي عصر الدولة العباسية، زاد مدلول المغرب اتساعاً باتساع الدولة العباسية فكل ما هو غرب (العراق) فهو مغرب، فصارت (الشام) أيضاً ضمن بلاد المغرب، وأيضاً (مصر).

---

(١) ومن مدلولات (غرب) الغُربَة: الاغتراب، وتغرب واغترب بمعنى غريب وجمعه غُرباء، والغرباء: الأباعد، والتغريب: النَّفي عن البلد، وغَرْبُ كل شيء: حَدُّه، وغَرَّبَت الشمس: دخلت في الغروب.
(الرازي، محمد بن عبد القادر (ت بعد ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م)، مختار الصحاح، مط الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٦م، ص٤٧٠).

وقد ذكر المسعودي أن العباسيين قسموا دولتهم إلى [وسط (قلب)، مشرق ومغرب.

فالوسط – يشمل قطب دولتهم ومركز خلافتهم (العراق) وعاصمتهم بغداد.

أما المشرق – فيشمل بلاد فارس وخراسان والترك والسند والهند إلى الصين.

أما المغرب – فيشمل الشام ومصر وافريقيا وما يليها إلى (طنجة).

وعلى هذا الأساس قسم الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م) المسؤوليات على أبنائه (الأمين، والمأمون، والمؤتمن).

ولكن على الرغم من هذه التقسيمات، فإن جمهرة من المؤرخين والجغرافيين العرب المسلمين، اتفقوا على تحديد كلمة (المغرب العربي) بالأراضي الممتدة من (برقة) إلى (طنجة)[1] أو إلى المحيط الأطلسي. وهناك من أطلق تسمية (المغرب الإفريقي) و (المغرب الأندلسي).

أما مدلول لفظ (المغرب العربي) في (العصور الوسطى) بعد أن خرج منه القسم الأوربي (الأندلس) فأصبح قاصراً على (بلاد شمال افريقيا) فقط أو ما يسمى (المغرب العربي).

ولقد اصطلح على تقسيم (المغرب العربي)[2] إلى ثلاثة أقسام كبيرة بحسب قربها أو بُعدها من مركز الخلافة العباسية في بغداد، وهو مجرد تقسيم اصطلاحي أوجبته الضرورات (الإدارية) أو (البحثية) وأحياناً (السياسية) لأن (المغرب

---

(١) وَلِيلَى: وهى اسم لِطَنجة باللسان البربري، وهي على مسافة يوم من موضع فاس. ابن عذاري، البيان المغرب – ١/ ٨٣.

(١) تفاصيل ذلك، العبادي، د. أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية – بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٢م ص ٢١٩ وما بعدها.

العربي) وحدة متماسكة تجلت مظاهرها في شتى النواحي التاريخية والجغرافية والبشرية والإقتصادية، والتطلعات والأمال الإنسانية:

١. المغرب الأدنى ... ويسمى (إفريقيا):

وكان يشمل القيروان وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر، والبلاد الطرابلسية وبرقة (أحياناً).

وكانت قاعدته أو مركزه أو مقره:

- القيروان: في عصر الفتح وعصر الأغالبة.
- المهدية: في عصر العُبَيْديين.
- تونس: منذ عصر الحفصيين وليومنا.

٢. المغرب الأوسط ... ويسمى (الجزائر):

ويشمل بلاد الجزائر – وكان مركزه أو مقره أو قاعدته:

- تاهرت – في عصر الإمارة الرسمية (مؤسسها عبد الرحمن بن رستم) وهي من (الخوارج الإباضية) وتقع تقريباً في مكان (تياريت) الحالية، في ولاية وهران غربي الجزائر.
- أشير – في عصر الإمارة الزيرية الصنهاجية. وهي مدينة (بَنيه) الحالية، بالقرب من مدينة الجزائر.
- تُلِمْسان – في عصر إمارة عبد الواد أو (الزيانية) في ق ٧هـ/ ١٣م.

- الجزائر (جزائر بني مزغنة) – وهي مدينة (الجزائر) الحالية، وهي العاصمة ليومنا.

٣. المغرب الأقصى ... ويسمى (المغرب):

ويُعد (المغرب الأقصى) امتداداً طبيعياً للمغرب الأوسط، لميوعة الفواصل التي بينهما، ولذا فهُما في معظم العصور والأزمنة التاريخية يكونان إمارة واحدة.

وأنّ (نهر مُلويّة) هو الحَدّ بينهما، وهو حَدّ غير ثابت.

والمغرب الأقصى – يعرف اليوم باسم (المغرب) أو (المملكة المغربية).

ويطلق عليه البعض (خطأ) اسم (مَرّاكش) على غِرار التسمية الأوروبية (Maroc و Marruccos) وهو خطأ شائع. وكان مركزه:

- فاس (البيضاء) في عصر إمارة الأدارسة، التي أسسوها سنة (١٩٢هـ/ ٨٠٧م) بأمر ادريس الثاني. وفي عصر الإمارة المرينية: في ق٧هـ/ ١٣م، وفي عصر الإمارة الوطاسية: في ق٩هـ/ ١٥م.
- مراكش (الحمراء) في عصر إمارة المرابطين، التي أسسوها سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) بأمر يوسف بن تاشفين، وفي عصر إمارة الموحدين، وفي عصر الإمارة السعدية في ق ١٠هـ/ ١٦م.
- الرباط – التي أسست في العصر الموحدي، من قبل (يعقوب المنصور) في ق ٦هـ/ ١٢م، وهي (رباط الفتح)، أما كعاصمة فأصبحت منذ سنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م) وليومنا.

فالمغرب العربي، أرض واسعة شاسعة، تمتد من المشرق إلى المغرب، وتتخللها سلسلة جبال طويلة (حوالي ٤٠٠٠كم) ويحيطه البحر المتوسط (شمالاً)، والمحيط الأطلسي (غرباً)، وكذلك تحدّه من (الشمال) سلسلة (جبال الريف) التي تبدأ من المحيط غرباً إلى قرب (تلمسان) شرقاً.

أما في (الجنوب) فهناك سلسلة (جبال أطلس) التي تبدأ من المغرب الأقصى إلى المغرب الأدنى مروراً بالمغرب الأوسط، ويليها (جنوباً) (الصحراء الكبرى) التي تفصل المغرب العربي عن السودان، وكانت هذه الصحراء تعرف باسم (صحراء العِرْق) - بكسر العين وسكون الراء - ومعناها في اللغة (الأراضي الرملية القليلة المياه).

وفي الجزء الغربي من هذه الصحراء أي في المنطقة المتاخمة للمحيط الأطلسي جنوبي (المملكة المغربية) توجد (صحراء شنجيط أو شنقيط) ومعناها بالبربرية (عيون الخيل) - وهي بلاد (موريتانيا) الحالية، التي مازالت (عاصمتها الروحية) تسمى باسمها القديم (شنجيط).

أما (عاصمتها السياسية) فهي مدينة (نواكشوط) الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي.

لقد عاش في تلك الصحراء من قديم قبائل (صنهاجة اللِّثام) أو (الملثمون) البربرية. كما هاجر إليها من (المغرب الأقصى) في ق٦هـ/ ١٢م، جماعة من عرب

(بني هِلال) وهم (بنو حسان) الذين عربوا تلك المنطقة بلهجتهم الحسانية (التي مازالت موضع دراسة بعض المستشرقين وعلماء اللغة).

أما سكان (المغرب القديم) فكانوا يُسَمَّون (أمازيغ)[1] وهي كلمة (بربرية) معناها (الرجل الحر الخشن).

أما كلمة (بَربَر) التي أطلقت على سكانه، فهي كلمة Barbbaros الدخيلة، التي أطلقها من غلب عليهم من الأمم كالرومان والإغريق وغيرهما.

أما السكان الأصليون فلا يُسمون أنفسهم بالبربر، فلكل قبيلة أسمها الخاص بها، ولكن لا يوجد لهم اسم علم عام.

والظاهر أن كلمة (بربر) اسم صوت، جاء من أن البربر يُحْدِثون أصواتاً غير مفهومة يغلب عليها (الباء والراء) حينما يتكلمون، أي بمعنى (أنهم يبربرون في كلامهم). وللبربرية عدة لهجات، منها:

- الشلحة: وهي لهجة الشلوح سكان بلاد السوس، وجبال أطلس الكبير في أقصى المغرب.
- تمازرت: وهي لهجة سكان الأطلس المتوسط.
- الزناتية: وهي لهجة سكان جبال الريف في الشمال

(١) الصوفي، تاريخ العرب في الأندلس، ١/ ١١ وما بعدها.

والبربر يشبهون العرب من حيث النظام الاجتماعي - القبلي في السلم واللاسلم، وقبائلهم كثيرة ونفوسهم غزيرة. و(الحكومة) تسمى بـِ (المخزن)، ولهذا سميت البلاد الخاضعة لها (بلاد المخزن).

ويرجع بعض المؤرخين الذين عنوا بأنساب البربر وأحوالهم إلى أصول عربية (سامية) جزرية، ويقولون إنهم من أبناء (قيس عيلان). أما علماء الاستشراق فيرون أن البربر عموماً من أصل (حامي) اختلطوا مع عصور سحيقة بأصول (سامية). والبربر يقسمون إلى:

١. البربر البرانس: وهم البربر (المستقرون) الذين يعيشون على الزراعة.

٢. البربر البُتْر: وهم البربر (الرحل) سكان البادية الذي يعيشون على الرعي والتنقل.

وذكر المؤرخون أن (البرانس) انحدروا من رجل عربي اسمه (برنس بن بَر بن قيس عيلان) وأن (البتر) انحدورا من سلالة أخيه (مادغيس بن برَ بن قيس عيلان) الملقب بـ (الابتر).

ثم يسوقون في ذلك قصصاً تبرز سبب عجمتهم وهجرتهم إلى (المغرب) وهي أن جدهم الأعلى (بر بن قيس ..) خرج من (الحجاز) مُغاضباً لأبيه وأخوته إلى جهة المغرب.

فقال الناس:

بَرَّ بَرْ: أي تَوَحَّشَ في البَراري، فسموا: بَرْبَراً.

وهذا الرأي ما يزال موضع جدال بين علماء السلالات والمؤرخين.

ومن أهم قبائل (البتر) قبيلة (زناتة) التي تتفرع إلى عدة قبائل منها: جراوة، مغراوة، بني يَفْرِن، بني مَرين، بني زَيَّان، وبني وَطَّاس.

ومن أهم قبائل (البرانس) قبيلة (صنهاجة) التي تتفرع إلى فرعين رئيسين:

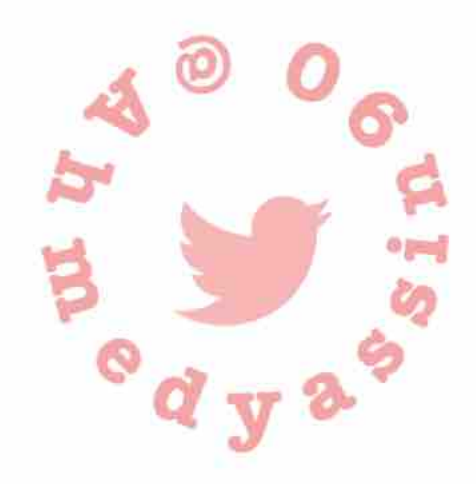
صنهاجة الشمال: وهي في (المَغْرِبَيْن الأدني والأوسط) ومنهم (الإمارة الزِيرية الصنهاجية، نسبة إلى مؤسسها زِيري بن مناد الصنهاجي).

صنهاجية الجنوب – الملثمون أو المقنعون:

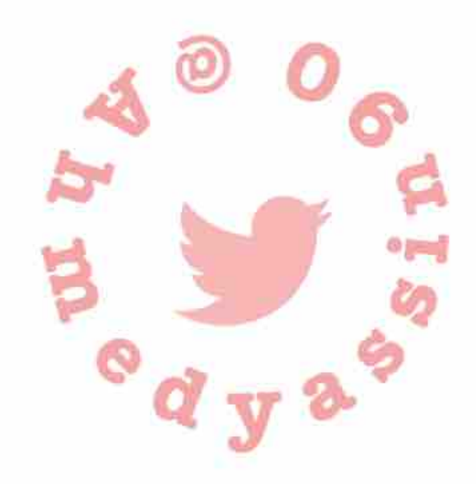
لدفع العين الشريرة الحاسدة عنهم، وربما جاء هذا تأثيراً بالمجاورين لهم (الزنوج). وهي القبائل التي تعيش في صحراء شنجيط (موريتانيا) الحالية. ومن أهم قبائلها: لمتونة، جدالة، مُسُّوفة، لمطة، وجزولة.

ومن بقايا الملثمين من صنهاجة (الطوارق أو التوارجة).

وعموماً (البربر) يشبهون (العرب) في سجايا وخِصال الكرم، والشجاعة، وَحِدَّة المزاج، وحب المجاهدة والدفاع عن النفس. إلا أنهم كانوا يعتقدون في الشَعْوَذة والخرافات، والسحر والاستشراف المستقبلي!؟


@Ahmedyassin90


الفصل الثاني
الفتح العربي
الإسلامي


@Ahmedyassin90

الفصل الثاني

الفتح العربي الإسلامي للمغرب

أولاً: المغرب في عصر الخلافة الراشدية

في عصر الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) استكمل العرب المسلمون فتح (مصر) في سنة (٢١هـ/ ٦٤١م) ورأوا أن فتح (افريقيا والمغرب) لنشر الإسلام كعامل روحي رئيسي، إضافة إلى العوامل الأخرى (السياسية والجغرافية والاقتصادية) التي يمكن أن يعود بها، كان ضرورة عسكرية مهمة لحماية حدود دولة الإسلام الغربية، لما يمكن أن يتهدّدها من الخطر الرومي في إقليم افريقيا (تونس).

ولقد كان أول قائد عربي وجهه (عمرو بن العاص)، لفتح المغرب هو (عُقْبة بن نافِع الفِهْرِيّ) فتمكن (عقبة) من فتح (زَويلة) في سنة ٢١هـ/ ٦٤١م.

ثم ما لبث أن توجه (عمرو) بنفسه إلى (بَرْقَة) [1] في سنة ٢٣هـ/ ٦٤٢م فصالح أهلها على (الجزية) وهي ثلاثة عشر ألف ديناراً أو (دينارا واحدا على كل مالم)[2].

---

(١) بَرْقَة أو طوكره أو أنطابُلس .. أسسها اليونانيون، كما جاء ذلك في تاريخ هيرودوت، وعرفت بـ (المَرْج) منذ ق ٧هـ/ ١٣م، وليومنا هذا.

(٢) النويري، احمد بن عبد الوهاب (ر ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة ١٣٩٥، ١٩/ ٣٣٠ وما بعده.

وسار (عمرو) بعد ذلك إلى (طرابسل الغرب) سنة (٢٢هـ/ ٦٤٢م) فلقي فيها مقاومة أكبر من تلك التي لقيها في (برقة) واستنجد أهل طرابلس بقبائل.

(نفوسة)، بيد أن ذلك لم يفدهم في شيء إذ فتح (عمرو) طرابلس، ووضع الجزية على أهلها، وكتب عمرو إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يخبره بما أفاء الله تعالى على المسلمين من الفتح والنصر، وأنه لم يبق أمامه سوى بلاد افريقيا، فعاد عمرو إلى مصر، بعد أن ترك في طرابلس (رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري) وبقي عمرو فيها حتى عزله عنها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وولي مكانه (عبدالله بن سعد بن أبي سرح) في سنة)٢٥هـ/ ٦٤٥م) الذي كان يبعث فرسان المسلمين في هجمات سريعة، وغارات (استطلاعية) على أطراف افريقيا (تونس) فيغنمون ويعدون، مما كون لديه مع الزمن (فكرة) إمكانية فتح افريقيا، وكتب إلى الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يخبره بما نال المسلمين من عدوهم، فرأى الخليفة (بعد المشاورة) أن الأمر يستحق الإقدام عليه، فأمر بتشكيل جيش يتوجه إلى افريقيا لفتحها.

اتخذ الخليفة قراره ذلك في سنة (٢٧هـ/ ٦٤٧م) وفتح مستودعات السلاح التي كانت عنده، فتوافى خَلْقٌ كثير من القبائل، وخاصة تلك التي كانت تقطن حول (المدينة المنورة) وانضموا إلى الجيش الذي تميز باحتوائه على عدد من رجالات العرب المعروفين منهم: العبادلة، عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر بن الخطاب،

وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبدالله بن جعفر، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وعبد الرحمن بن طلحة، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، ولذلك سمي الجيش (جيش العبادلة). وكذلك ضم: مروان بن الحكم، والحارث بن الحكم، والمسور بن مخرمة بن نوفل، وعاصم بن عمر، وبِسْر بن أرطأة، وحمزة بن خويلد، وزهير بن قيس، وكثيرون غيرهم.

وما أن تمت الاستعدادات حتى أمر الخليفة الناس فعسكروا، وقام فيهم خطيبا فوعظهم وذكرهم وحرضهم وحصنهم على القتال، وقال لهم:

".. قد عهدت إلى عبدالله بن سعد أن يحسن صحبتكم ويرفق بكم، وقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبدالله بن أبي سعد بن سرح فيكون الأمر له ..".

وقد وزع الخليفة عليهم السلام، وأمدهم بألف بعير... ووصل الجيش إلى مصر فأنضوى تحت لواء (عبدالله بن سعد بن أبي سرح) الذي خرج متوجها إلى افريقيا على رأس (عشرين ألف) من الجنود.

كانت افريقيا (تونس) تحت تسلط الرومان (آنذاك) ولو أن حاكمها البطريق البيزنطي (جِرْجيس)[1] أو (جِريجُوريُوس) أو (جُرْجِير) من قبل (هرقل) والذي كان في واقع الأمر يتصرف تصرف المستقل، وتمتد سلطته من (طرابلس)

---

(١) اليعقوبي، تاريخه، ٢/ ١٩٥، وجُرْجير مختصر من (جريجوريومن)، وذكر ابن العماد الحنبلي – شذرات الذهب ٣٦/١: جُرير، وسماه دى سلان: جُرْجيز.

إلى (طنجة)، مع ضربه (الدنانير) بإسمه. وقد سار (عبدالله بن سعد) على رأس جيشه نحو (افريقيا) فمر ببرقة، ووصل بعدها إلى طرابلس وكان يرسل السرايا بين الحين والآخر لتكتشف الطريق، وتستطلع تواجد قوات العدو، إلى أن وصل الجيش أخيرا إلى (افريقيا) نفسها، أما (جريجوريوس) فنزل في سهل متسع يسمى "بَعْقوبَة"[1] بينه وبين مدينة (سُبَيْطِلَة) مسيرة يوم وليلة، وحاليا هي "جِمْنَة" قرب حاجب العيون، وهي تبعد (٦٠كم) من القيروان، وكان عدد جيشه (مائة وعشرون ألفا) مقابل (عشرين ألف) من المسلمين المؤمنين. وَعَرَضَ رُسُل (ابن أبي سرح) على (جريجوريوس):

الدخول في الإسلام، أو الاستسلام ودفع الجزية، أو اختيار طريق القوة (الحرب). ووقعت الواقعة[2] في (معركة بعقوبة) على الروم وقتل قائدهم، وأسر من أسر منهم، وهرب الباقون إلى (سبيطلة) وكان النصر حليف المؤمنين.

---

(١) بَعْقُوبَة: حالياً: جِمْنَة بتونس، قرب حاجب العيون، وتبعد ٦٠كم عن القيروان، وتبعد مسيرة يوم وليلة عن سُبَيْطِلَة دار ملك الروم.

وبَعْقُوبة (العراق): هي التي وقعت بالقرب منها معركة (جَلَوْلاء) المشهورة عند تحرير العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص سنة ١٤هـ/ ٦٣٤م. وحالياً .. هي مركز محافظة ديالي المجاورة لبغداد شمالاً شرقياً.

(٢) ذكر أنه عندما طالب الحرب بين الفريقين فَعَنَّ لِـ (عبدالله بن الزبير) خاطِرٌ مرّر عرضه على القائد ابن أبي سرح فتوجه نحو فسطاطه: قائلاً: "إني فكرت فيما نحن فيه فرأيت أمراً يطول والقوم في بلادهم والزيادة فيهم والنقصان فينا، وقد اتصل بي أنه نفذ إلى جميع نواحيه بالحشد والجمع، وقد رأيت أصحابه إذا سمعوا الأذان أغمدوا سيوفهم ورجعوا إلى مضاربهم، وكذلك المسلمون جرياً على العادة ... الخ

ينظر: ابن عذاري – البيان المغربي ١/ ٥، ابن خلدون – العبر ٢/ ١٢٩، النويري – نهاية الأرب ١٩/ ٣٣٠ وما بعدها.

وقد ظل (ابن أبي سرح) واليا على (افريقيا) يدير شؤونها حتى عزل عنها وعن مصر حوالي سنة (٣٦هـ/ ٦٥٦م) فسار إلى فلسطين حيث عاش فيها مدة، وتوفي سنة (٥٩هـ/ ٦٧٨م) بمدينة عَسْقَلان.

ثانياً: المغرب في عصر الخلافة الأموية

إن إحراز العرب المسلمين الانتصار في (معركة بَعْقوبَة) عند سُبَيْطِلَة في افريقيا (تونس) لم يمنع (إمبراطور القسطنطينية) بالتدخل السافر بشؤون افريقيا، فأرسل إليها جيشاً على رأسه البطريق (أوليمة) ليؤكد غطرسة الإمبراطور البيزنطي وسلطته المزعومة على افريقيا، ويُطالب أهلها بدفع الضرائب المترتبة عليهم زوراً. بَيْدَ أن أهل افريقيا الذين كان قد تولى أمر من بقي منهم خارجاً عن طاعة المسلمين رجل اسمه البطريق (جُناحَة) [1] أو (حُباجِيَة الرومي) رفضوا الانصياع لأوامر الإمبراطور فنشب بينهم قتال وفتنة، جعلت الكثير منهم يلجأون للاستغاثة والاستعانة بالعرب المسلمين. وقد أمّ وفد منهم (دمشق) بعد أن أصبحت عاصمة للخلافة الأموية منذ سنة (٤١هـ/ ٦٦١م) طالبين المعونة من (معاوية بن أبي سفيان) فَسَيَّر معهم جيشاً بقيادة (معاوية بن حُدَيْج الكِنْدي السَّكوني) ليُعيد فتحها بعد أن كان (ابن أبي سرح) قد انسحب منها، في حين ذكر أنه خلف (نافع بن عبد القيس الفِهْري) في (زَوِيلَة) لتولي أمر افريقيا وطرابلس.

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢٩ والنويري وحُباجِية الرومي – ابن عذاري، البيان المغربي.

وقد وصل (ابن حُدَيْج) إلى افريقيا بحدود سنة (٤٥هـ/ ٦٦٥م)[1] وانتصر على جيش الروم في موقعة (سَنْطَبَرِيَّة) وانهزم البطريق (نَقْفور أو نَجفُور) قائد الجيش الرومي الذي نزل عند (قَمُونِيَّة) قرب طرابلس.

كما خاضت إحدى سرايا جيش ابن حديج بقيادة الملك بن مروان (معركة جَلَوْلاء)[2] التى انتصر فيها المسلمون، وفتحت مدينة (جلولاء) عنوة. كما فتح مدينة (بنزرت) في حين فتح عبدالله بن الزبير (سوسة). أما (صقلية) فقام (عبدالله بن قيس) بمهاجمتها لأول مرة.

عاد (ابن حُديج) إلى ولايته (مصر) بحدود سنة (٤٦هـ/ ٦٦٦م) أو (٤٧هـ/ ٦٦٧م) ووقع اختياره على القائد (عُقْبه بن نافِع) لولاية افريقيا والمغرب. الذي كان أول من نشر الإسلام في تلك المناطق في حملته الأولى، ويميل عدد من المؤرخين إلى تحديد مسيرة (عقبة) ووصوله إلى افريقيا سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م) على رأس (عشرة آلاف) من الجند المسلمين، فأعاد افتتاحها من جديد ورأى أن أفضل الأمور هو إبقاء حامية عسكرية كبيرة في قلب البلاد، إلا أن وجود تلك الحامية كان يحتاج إلى مكان آمن يلجأ إليه حين الحاجة، ومن هنا

---

(١) هذا التاريخ فيه اختلاف كبير بين المؤرخين يتراوح بين عام ٣٤هـ/ ٦٥٤م (ابن عبد الحكم – فتوح افريقيا والمغرب ص٢٦٠). وعام ٤٥هـ/ ٦٦٥م (النويري – نهاية الأرب – ١٩ – ٣٣٠) وما بعدها ولو أن التاريخ الأول غير منطقي نظراً لأن ابن أبي سرح قد غادر افريقيا في عام ٣٦هـ/ ٦٥٦م كما هو معلوم.

(٢) جَلَوْلاء العراق .. التي جرت على أرضها (معركة جلولاء) عند تحرير العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص وفي عصر الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في سنة ١٤هـ/ ٦٣٤م. وحالياً هي (ناحية) تابعة لقضاء خانقين بمحافظة ديالى المجاورة لبغداد شمالي شرق.

نشأت فكرة بناء (القيروان) أي (المعسكر) أسوةً بأول مدينة تؤسس في الإسلام (البصرة) في جنوب العراق، الكوفة ثاني مدينة وثاني عاصمة للمسلمين، في وسط العراق. وقد بُدئ ببناء (القيروان) سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م) وانتهى العمل بها سنة (٥٥هـ/ ٦٧٤م) عندما أتى أمر الخليفة (معاوية بن أبي سفيان) بعزل (عقبة) وتوليه (أبو المهاجر دينار)، الذي عاد افتتاح بعض المناطق التي تمردت، وتغلغل بجيشه إلى (تِلْمسان) حيث دارت قربها معركة بينه وبين (قبيلة أَوْرَبَة) البرنسية وكبيرها (كُسَيْلَة بن لَمْزَم) [1] وفلول من الروم، انتصر فيها المسلمون وهزموا أو فرقوا جموع هؤلاء وأسر (كُسيلة) فعامله أبو المهاجر معاملة كريمة، فكسب محبته وأمن جانبه.

عزل أبو المهاجر سنة (٦٢هـ/ ٦٨١م) وولي عقبة بن نافع مرة ثانية، على افريقيا، التي بَدأها بحملة كبرى اتصفت بالسعة والشمول، حتى انتهى به الأمر إلى الوصول إلى سواحل (البحر المتوسط) المقابلة لشبه جزيرة ايبيريا (الأندلس فيما بعد) وإلى سواحل (المحيط الأطلسي) في أقصى المغرب، حيث خاضَه بقوائم فرسه، ورفع يده إلى السماء قائلاً:

"اللهم إِنيّ أشهدك أني وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سِواللك"

---

(١) اوكَسيلَة بن لَمْزَم البربري الأَوْرَبي (نسبة إلى قبيلة أَوْرَبَة Volubilis) او كسيلة بن لَمْزَم (او بن بَهْرَم)، وسُمي (ابن الكاهنة). ينظر: (ابن عبد الحكم ص٩٨، ابن الأثير - أسد الغابة ٣/ ٤٢١، ابن عذاري ١/ ١٩، ابن خلدون ٦/ ٢١٦، النويري ٢٤/ ٢٩. واليعقوبي ح/ ٢٢٩).

وحرص الكونت (يُولْيان)[1] حاكم (سبتة) ألا يصطدم بالعرب المسلمين، وأن يداري جانبهم، وأن (عُقبة) قد قبل ذلك، وأنه فكر منذ ذلك الحين بفتح الأندلس وأنه استوضح من يوليان عن البحر الفاصل بين افريقيا وأورُوبا) فتلقى منه جوابا لا يتضمن التشجيع على القيام بمثل تلك العملية الاقتحامية.

وكرر راجعا بعد أن دانت له القبائل المغربية، ويظهر أنه ظن على أثر تلك الانتصارات المتكررة التي أحرزها أنه لم يعد في المغرب قوة تجرؤ على مقاومته، فطرح (الحيطة والحذر) جانبا، وأمر جيشه بأن يتقدمه نحو (القيروان) بينما بقي هو في حوالي (ثلاثمائة) من رجاله معظمهم من كبار الصحابة والتابعين، وذلك في سنة (٦٤هـ/ ٦٨٣م). وهنا نظم الهجوم عليه (كسيلة) الذي كان (أبو المهاجر) قد أسره، مع فلول من الروم، وجمع من قبائل (أَوْرَبة) عند (تهوذة) أو (تهودة أو تهودا) في بلاد (الزاب) جنوب جبال (أوراس) بالجزائر. فقرر (عقبة) ومن معه أن يقاتلوا حتى الاستشهاد. أمام جيش مؤلف من (خمسين ألف). ودفنوا في المكان نفسه (تهودا) وأقيم على قبر عقُبة مسجد يعرف بمسجد سيدي عقبة. (وهو من المزارات الكبرى هناك).

ولما استقرت أمور الخلافة بيد (عبد الملك بن مروان) تقرر تولية (زهير بن قيس البلوي) أمر (افريقيا) الذي وصلها سنة (٦٩هـ/ ٦٨٨م) على رأس جيش

---

(١) ابن خلدون -٤/ ٣٩٩. وسمى: إيليان – ابن الأثير ٣/ ٣٠٨. و(يِلْيان) وهما من اسم (Julien) جوليان أو خوليان عند الأسبان. وله ابنه اسمها (فلورندا) التي اختصبها الملك لذريق على أغلب الروايات.

كبير لمقاتلة (كسيلة) قرب القيروان ودارت معركة حامية الوطيس، وكثر القتل بينهما، فلم يزالوا كذلك حتى هزم الله تعالى (كسيلة) وقتل، فجد الناس في طلب معسكره المهزوم.

رحل زهير باتجاه (برقة) يرافقه عدد من المسلمين، فعلم البيزنطيون بنبأ خروجه من افريقيا، فعزموا على استغلال الفرصة السانحة ومهاجمة (برقة)، وقد وقع ذلك في الوقت الذي وصل فيه زهير ومن معه إلى برقة، وأخبر (زهير) بخبرهم وما اقترفه هؤلاء الأوغاد، فنادى أصحابه بالنزول لمقاتلة الأعداء، وتلقاهم الروم بأعداد هائلة، والتحم الطرفان بقوة، وتكاثر عليهم أعداء الإسلام، واستشهد (زهير بن قيس) ومعظم من كان معه، واضطر الباقون إلى الانسحاب، واخبار (عبد الملك بن مروان) بما حدث. الذي ولي (حسان بن النعمان الأزدي) سنة (٧١هـ/ ٦٩٠م) وأعطاه جيشا مدربا منظما تعداده (أربعون ألفا) لمقاتلة المتنزين والمرتدين، ومنهم امرأة تدعى (داهية)[1] أو (الكاهنة) التي قاتلها سنة (٧٦هـ/ ٦٩٥م) قرب (بِجايَة) ولم يكتب للمسلمين النصر، وأعملت الكاهنة فيهم القتل، وتمكنت من أسر ثمانين رجلا من أعيان الصحابة. فتراجع (حسان) إلى برقة وأقام بها وبني هناك منطقة سكنية، سميت "قصور حَسّان".

(١) وتدعى: داهية بنت ماتية بن تيفان.

أما (الكاهنة) فقد سيطرت على المغرب لمدة خمس سنوات. في حين ظل (حساناً) منتظرا مددا من الخليفة (عبد الملك بن مروان) وأتاه سنة (٨٠هـ/ ٦٩٩م) وأخذ حسان يستعد لمقاتلة هذه المرأة المفترية التي أمرت أنصارها بمهاجمة المسلمين، فالتحم القتال واشتد النزال، وسقط آلاف القتلى من الفريقين، إلى أن رأت (الكاهنة) رجحان كفة العرب المسلمين فعمدت إلى الهرب، ولكن حسان لم يشأن أن يتركها تنجو من المعركة فتبعها وقتلها سنة (٨١هـ/ ٧٠٠م) وبذلك خلص المسلمين من شرها.

وكان مع (حسان) جماعة من (البربر) استأمنوا إليه، فأمنهم على أن يعطوه من قبائلهم (اثني عشر ألفا) يجاهدون مع المسلمين، فاجابوه واسلموا على يديه، فعقد لولدي الكاهنة (بالتبني) لكل واحد منهما على (ستة آلاف) فارس وأخرجهم مع العرب المسلمين يجولون في المغرب، يقاتلون الروم، ومن بقي من البربر خارجا عن الطاعة، وبذلك دعم (حسان) مبدأ الإسلام في العدل والمساواة بين العرب والموالى المسلمين بربرا وغير بربر، فلا فرق بين عربي وبربري في جميع الحقوق حتى في قيادة الجيش.

واتجه (حسان) بعد ذلك إلى عمارة البلاد فجدد بناء جامع عقبة الكبير بالقيروان، وأنشأ ميناء بدلا من قرطاجة، واسمى هذا الميناء (تونس) الذي أصبح – فيما بعد – مدينة كبيرة وليومنا، وبنى بها الجامع الكبير المسمى (جامع الزيتونة) لزيتونة كانت فيه.

كما نشر (العربية) في المغرب وجعلها اللغة الرسمية في جميع الدواوين. ونظم الجبايات في المدن ومع رؤساء القبائل، وقسم الأراضي التي كانت محتلة من قبل الدولة البيزنطية بين صغار الفلاحين من البربر.

وعزل (حسان بن النعمان) سنة (٨٦هـ/٧٠٥م) وولي على افريقيا والمغرب (أبو عبد الرحمن موسى بن نصير) الذي أصله من (عَيْن التَّمْر) قرب (كربلاء) بوسط العراق.

سار (موسى) على رأس جيش إلى افريقيا، فلما وصل وجد البلاد في قحط شديد، والمياه شحيحة شبه معدومة فكان أول ما فعله هو صلاة (الاستسقاء) التي كان المسلمون يؤدونها تضرعا إلى الله تعالى في إرسال المطر والخصب والنماء.

فأمر (موسى) الناس بالصوم، والصلاة، وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء، فأقام حتى منتصف النهار، ثم صلى وخطب في الناس دون أن يتعرض بالذكر والدعاء للخليفة (عبد الملك بن مروان) فلما قيل له: ألا تدعو للخليفة؟ قال: "هذا مقامٌ لا يدعُى فيه لغير الله..".

فاستجاب الله إلى دعاءهم، وهطلت بعض الأمطار فسقوا حتى رووا وبدأ الخصب يعود إلى البلاد.

كانت أولى الفتوحات التي قام بها موسى هي في قلعة (زغوان) وقد حالفه النصر فيها، كما في نواح أخرى من افريقيا، وكذلك في (الزاب) وانتصاره على قبائل (سجومة) و (هوارة) و (زناتة) و (كتامة) و (المصامدة).

كما هاجم جُزر (صقلية) و (مَيُوْرقَة) و (مَنُوْرَقة) [1] ولم يبقَ أمامه سوى (طنجة) التي تم فتحها وولى عليها موسى (طارق بن زياد). أما (سبتة) التي يحكمها الكونت (جوليان) (يوليان) – الذي أظهر ولائه وخضوعه لعقبة بن نافع، ولم يدخل معه في نزاع مسلح – ويظهر أن محاولة فتح (سبتة) ومحاصرتها قد تكررت أكثر من مرة في تلك الفترة، دون أن تؤدي إلى نتيجة إيجابية، وذلك لمنعتها، وبقيت على هذا الحال إلى أن قرر (يوليان) مراسلة العرب المسلمين وتشجيعهم على فتح (الأندلس).

لقد تم تنظيم (المغرب) إدارياً في فترات الولاة الذين سبقوا (ابن نُصَيْر) وخاصة (حسان) فكانت هناك ولاية افريقيا (المغرب الأدنى) التي تمتد من طرابلس شرقاً حتى مجرى نهر (شِلْف) غرباً، وقاعدتها (القيروان) ولكن بعد أن استقر الفتح في (المغربين الأوسط والأقصى) أتم موسى التنظيمات الإدارية لبلاد المغرب، إذ قسمه ولايات، وجعل لكل ولاية قاعدة عربية يحكمها أحد ولاته، وهي:

---

(١) وتسمى (مَيُورقَة ومَنُورقَة واليابسة) الجزائر الشرقية أو جزائر البليار.

الأولى: في المغرب الأوسط، وتمتد من نهر (شِلْف) شرق (الجزائر) حتى نهر مولوية، وقاعدتها (تِلْمِسْان)[1].

الثانية: في المغرب الأقصى، وتمتد من نهري مولوية إلى ساحل المحيط الأطلسي، وجنوباً حتى وادي أم الربيع، وتسمى ولاية المغرب الأقصى أو ولاية طنجة، وقاعدتها (طنجة).

الثالثة: السوس: وتشمل المناطق الواقعة جنوبي وادي أم الربيع إلى أقصى أنحاء المغرب في الجنوب، وتعرف بولاية (السوس) وقاعدتها (سَجِلْماسة).

إضافة إلى (بَرْقة) وقاعدتها برقة (المرج) منذ ق٧هـ/ ١٣م.

كما قرر موسى تحقيق فكرة شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس) فأرسل إليها حملة استطلاعية بقيادة (طريف بن مالك) الملقب (أبو زرعة المعافري) مؤلفة من (خمسمائة مقاتل) في (أربع سفن) وعاد (طريف) حاملا أنباء مشجعة ومطمئنة على الفتح، فأرسل موسى في السنة التالية (٥ من رجب سنة ٩٢هـ/ نيسان (ابريل) سنة ٧١٠م)، طارقاً بن زياد على رأس حملة كبيرة (سبع آلاف من المسلمين)، في (أربع سفن) وجاءته أنباء فتوحاته وانتصاراته واستمده طارق، فذهب إليه موسى على رأس حملة جديدة أتم بها معه (فتح الأندلس).

في سنة (٩٥هـ/ ٧١٣م) استدعى (على حين غرة) – موسى بن نُصَيْر وكذلك طارق بن زياد – إلى دمشق، من قبل الخليفة (الوليد بن عبد الملك).

---

(١) أو تِلِمِسان.

وَخَلَّفَ موسى على الأندلس ولده (عبد العزيز). أما افريقيا فاستخلف عليها أكبر أولاده (عبدالله)[1].

وعزل الخليفة (سليمان بن عبد الملك) موسى بن نصير عن المغرب والأندلس سنة (٩٦هـ/ ٧١٤م) بعد استلابه وسجنه وتعذيبه !؟

وفي سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م تولى محمد بن يزيد افريقيا والأندلس اللتين كانتا قبلة تحت إمرة إبْني موسى بن نصير عبد العزيز وعبدالله، فجمع ابن يزيد امرتهما تحت قبضته باعتباره أميراً لافريقيا.

وعندما أصبحت الخلافة بيد عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) سنة (٩٩هـ/ ٧١٧م) أرسل إلى افريقيا (عشرة من الفقهاء) على رأسهم (إسماعيل ابن عبدالله بن أبي المهاجر دينار) الذي أسندت إليه الولاية.

وتوفى الخليفة عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) سنة (١٠١هـ/ ٧١٩م) وتولى بعده يزيد بن عبد الملك فعزل (اسماعيل) وتولى (يزيد بن أبي مسلم) صاحب الشرطة في العراق (في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي) الذي وصل القيروان سنة (١٠٢هـ/ ٧٢٠م) وقتل سنة (١٠٣هـ/ ٧٢١م).

وتولى محمد بن يزيد للمرة الثانية (في تاريخ غير معروف).

---

(١) "ذكر أن ولده عبد الملك وُلي على طنجة، ومروان على السوس، أما عبد الأعلى فقد صحبه إلى المشرق، ومن أولاده أيضاً – عبد الرحمن الذي يُكنى به.

وتولى افريقيا بعده (بِشْر بن صَفْوان الكَلْبي) سنة (١٠٤هـ/ ٧٢٢م) الذي هاجم صقلية سنة (١٠٧هـ/ ٧٢٥م).

- ولاية عُبَيْدة بن عبد الرحمن السلمى في سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م.
- ولاية عُقبة بن قُدامة في سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م.
- ولاية عُبَيْد الله بن الحجاب في سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م.
- ولاية كلثوم بن عيّاض القُشَيْري القيسي في سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م حيث قتل طنجة.
- ولاية حنظلة بن صفوان الكليبي في سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م.

وظل (الولاة) يتوالون على افريقيا، وعندما قتل الخليفة (الوليد بن يزيد) سنة (١٢٦هـ/ ٧٤٣م) فطمح وطمع (عبد الرحمن بن حبيب) حفيد عقبة بن نافع في تسلم زمام ولاية افريقيا، وأعلن الثورة سنة (١٢٧هـ/ ٧٤٤م) وأقره عليها الخليفة (مروان بن محمد) سنة (١٢٩هـ/ ٧٤٦م) درءاً للأخطار والفتن بها، ولأنه أعلم بشؤونها، إذ هي داره ودار جده عقبة بن نافع.

ثالثاً: المغرب في عصر الخلافة العباسية

في سنة (١٣٢هـ/ ٧٤٩م) قامت (الدولة العباسية) في العراق وسقطت (الدولة الأموية) في (دمشق) فأقر (العباسيون) عبد الرحمن بن حبيب في ولايته على افريقيا فأعاد الأمن إلى تلمسان وأرسل حملة إلى صقلية وكانت موفقة. ومن أعماله المهمة سيطرته على (جزيرة قوصرة) التي تبعد عن تونس نحو ثلاثين ميلا،

واستمرت تابعة لافريقيا، حتى تنازل عنها (أبو زكريا يحيى الحفصي) لفردريك الثاني ملك صقلية سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) ضمن اتفاق.

وتآمر على إبن حبيب أخَواه (إلياس وعبد الوارث) وقَتلاه سنة (١٣٧هـ/ ٧٥٤م). وتعاقب على افريقيا ولاة عديدون، منهم (الأغلب بن سالم التميمي) الذي ولاه الخليفة العباسي (أبو جعفر المنصور) سنة (١٤٨هـ/ ٧٦٥م) وقتل سنة (١٥٠هـ/ ٧٦٧م) في بعض حروبه. وخلفه (عمر بن حفص المهلبي) وكان بطلا شديد البأس مُغْوارا، وقد ابتنى بالزاب في الجزائر مدينة (طُبْنَة). وقتل سنة (١٥٤هـ/ ٧٧٠م) من قبل أباضيِّة طرابلس.

وولى افريقيا بعد (ابن حفص) ابن عمه (يزيد بن حاتِم) الذي قلم أظافر الصُّفْريّة بالزاب، وأظافير الأباضيّة في طرابلس وجبل نفوسة، وفتك بابي حاتِم الأباضِي وأنصاره هناك. وقد ضبط أمور الولاية بمنتهى الحزم، ومن أعماله:

- تجديد بناء جامع القيروان سنة (١٥٧هـ/ ٧٧٣م).
- وترتيبه لأسواق القيروان، إذ أفرد لكل صناعة وتجارة مكانا معينا.

وكان (ابن حاتم) أديبا حفيا بالأدباء والشعراء. يجزل لهم العطاء، وشدو إليه الرحال من المشرق، وبذلك أحدث في القيروان حركة ثقافية وفكرية نشطة، وكان يعقد لها الندوات في (دار الإمارة).

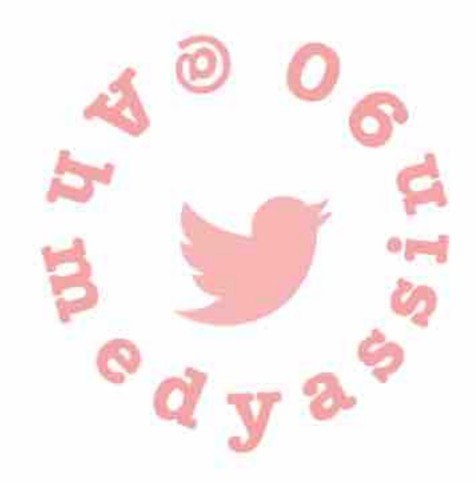
ومما ذكر من سيرته الحميدة أيضاً، إنه رأى يوما بإحدى ضواحي القيروان غنما كثيرا، فَسأل عن صاحبها، فقيل له: أنه لإبنه. فطلبه وعنفه (عيره ولومه) على مزاحمته الرعية في صور التكسب، وأمر بذبحها وتوزيعها على الناس.

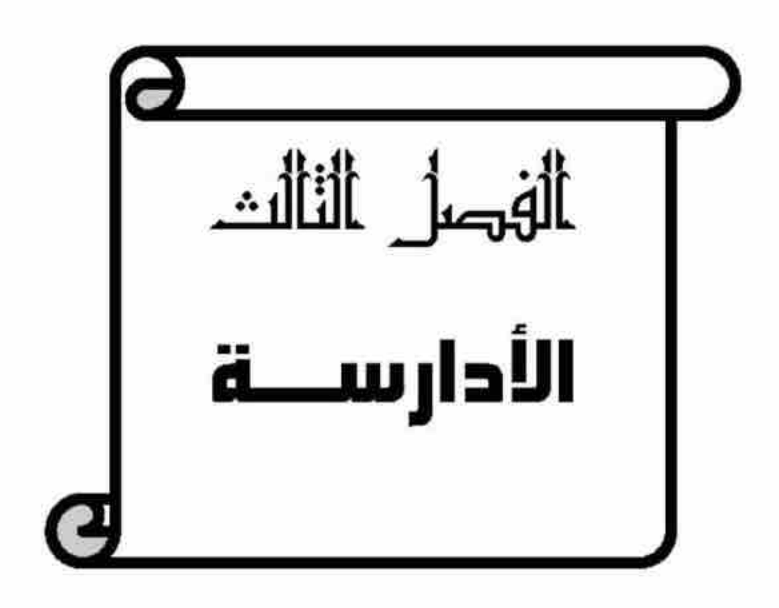
وَظَلَّ واليا على افريقيا (سبعة عشر عاما) حتى توفي سنة (١٧٠هـ/ ٧٨٦م). وتعاقب على افريقيا ولاة آخرين، نذكر منهم: هَرْثمة بن أَعيَن، الذي ولاه الخليفة هارون الرشيد سنة (١٧٩هـ/ ٧٩٥م). وهو من كبار قواد الخليفة الرشيد، وكان حسن السياسة والإدارة.

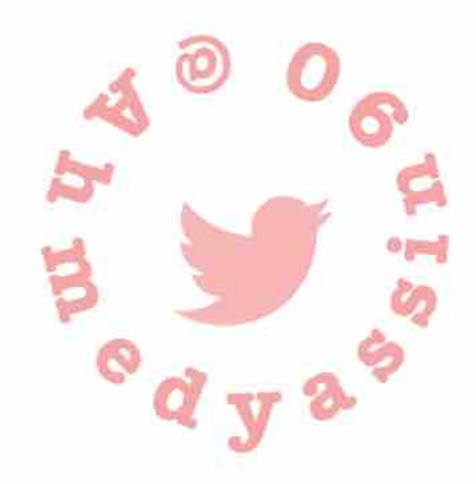
وابتنى (ابن أعيَن) رباط (المَنستِير) القريب من سوسة لحماية الساحل من غارات قراصنة البحر المتوسط، وظلت الأبنية تتسع حوله حتى أصبح مدينة كبيرة في (ق ٦هـ/ ١٢م).

ولم يلبث (ابن أعيَن) البقاء أكثر في افريقيا، فآثر العودةَ إلى (بغداد) سنة (١٨١هـ/ ٧٩٧م) وهي من الحالات النادرة في محبي الولايات وعشاق الإمارات، وَوَلّى الخليفة الرشيد (محمد بن مقاتل العكي) الذي لم تحمد سيرته، فعزله.

وأصدر الخليفة هارون الرشيد أمره بتعيين (ابراهيم بن الأغلب التَميمي) والياً على افريقيا سنة (١٨٤هـ/ ٨٠٠م) وجعلها لعقبة يتوارثونها من بعده، وأن تظل تابعة للخلافة العباسية في بغداد..


@Ahmedyassin90


الفصل الثالث
الأدارسة


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث
الأدارســـــة

قامت في المغرب العربي الإسلامي، عدة إمارات من أهمها:

* إمــارة الأدارســـة (١٧٢ ـ ٣٧٥هـ/ ٧٨٨ ـ ٩٨٥م):

كانت موقعة (فخ)[1] الشهيرة التي وقعت في عصر الخليفة العباسي (الهادي) في ذي القعدة سنة (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) جراء ثورة الحسين بن علي سليل الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ضد الدولة العباسية، لها أثرها التاريخي، فقد استشهد فيها الحسين ومن معه، وفر (عماه) منها:

يحيى بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي ثار في بلاد الديلم (بخُراسان) في عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م).

وادريس بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي بدأ له (المغرب الأقصى) هو المكان المطلوب وذلك لبعده عن بغداد مركز الخلافة العباسية. فنزل في ربيع الأول سنة (١٧٢هـ/ ٧٨٨م) في – زمن روح بن حاتم (١٧١-١٧٤هـ/ ٧٨٧-٧٩٠م) والي افريقيا والمغرب – مدينة (وليلى Oulili) على (اسحاق بن محمد بن عبد الحميد المعتزلي) أمير قبيلة (أوربة) وعرفه أمره، فأجاره، وأكرمه،

---

(١) فخ: مكان أو موضع يبعد ثلاثة أميال عن مكة المكرمة.

فأقام عنده زهاء ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته، وتمكن بفضل فصاحة لسانه وبلاغته من التأثير في نفوس البربر، خاصة بعد أن عرفوا أنه من آل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلقى منها العون والتأييد والمبايعة، فبايعته قبائل أوربة، وزواغة، ولواتة، وغمارة، ونفزة، ومكناسة، ولما تمت دعوته زحف إلى جموع البربر الذين كانوا لا يزالون على دين (المجوسية) و (المتمودين) و (المتنصرين) منهم فدانوا له واسلموا على يديه.

وفي سنة (١٧٣هـ/ ٧٨٩م) زحف إلى تلمسان ومن بها من قبائل (مغراوة) الزناتية وأميرها (محمد بن خزر) فأعلن إليه الطاعة وبايعه هو وقبيلته مغراوة فأمنه وآمن سائر زناتة، وبنى مسجدا بتلمسان ونظم شئونها، ورجع إلى عاصمته (وَليلى) [1]، ولم يلبث أن توفي سنة (١٧٥هـ/ ٧٩١م).

ويقال: إن الخليفة هارون الرشيد وبمشورة وزيره (يحيى البرمكي) بعد أن شاع اسم (إدريس) وانتشر وأصبح له مؤيديه ومريديه، أن يرسل إليه برجل معروف بالدهاء والمكر مع البلاغة والجرأة يحتال لاغتياله، وهو (سليمان بن جرير) المعروف (بالشَمّاخ)، فأظهر له الولاء، فقربه ادريس وأكرمخ، وانتهز فرصة (علة في أسنانة) فرش إليه السم في (مسواك) وكان فيه حتفه، ورقى (الشماخ) لتولي مهام (بريد مصر وأخبارها)!؟

(1) Oulili

توفي (ادريس) دون (ولد) ولكنه ترك جارية له اسمها (كنزة) حاملا في السابع من أشهر حملها، فجمع (راشد) مولى (ادريس) قبائل البربر وذكر لهم ما كان من أمرها:

فقالوا له: "أيها الشيخ المبارك تقوم بأمرنا كما كان إدريس يفعل فبنا حتى تضع الجارية، فإن وضعت غلاما ربيناه وبايعناه تبركا بأهل البيت، بيت النبوة، وذرية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإن كانت جارية نظرنا لأنفسنا ..".

فأنتظروا حتى وضعت بعد وفاته بشهرين ولدا ذكرا اسمته باسم أبيه (ادريس) فقام على تربيته خير قيام مولاه (راشد)، وتوفي راشد سنة (١٨٦هـ/ ٨٠٢م) فجعلوا مكانه في الوصاية عليه ولإشرافه على تربيته (يزيد بن إلياس)، حتى إذا بلغ (إدريس الثاني) الحادية عشرة من عمره بايعوه في (ربيع الأول سنة ١٨٨هـ/ ٨٠٣م).

في (جامعَ وَليلَى) وشب ودان له المغرب الأقصى، واستوزر (مصعب بن عيسى الأزدي)، وأخذ يستكثر من العرب حتى بلغوا نحو (خمسمائة) وبهم شمخ سلطانه.

وقام (ادريس الثاني) بقتل (اسحاق بن محمد بن عبد الحميد) أمير قبيلة أوربة، لما علم من اتصاله بخصومة (الأغالبة) حكام افريقيا التونسية وشرقي الجزائر.

وهم (إبراهيم بن الأغلب) على مقاتلة (ادريس الثاني) إلا أنه بحسب ما يشير المؤرخ (ابن الأثير):

"فنهاه أصحابه، وقالوا: اتركه ما تركك فاعمل الحيلة وكاتب القيم بأمره من المغاربة، واسمه (بهلول بن عبد الواحد) وأهدى إليه، ولم يزل به حتى فارق ادريس وأطاع إبراهيم، وتفرق جمع ادريس فكتب إلى إبراهيم يستعطفه ويسأله الكف عن ناحيته، ويذكر له قرابته من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكف عنه".
وقد ضرب (ادريس الثاني) السكة باسمه.

وعندما رأى أن مدينة (وَلِيلى) تضيق بحاشيته وأنصاره فصمم على بناء مدينة جديدة تسعهم، وكلف باختيار موضعها بضعة من المهندسين، وأشاروا عليه بموضع على مقربة من عاصمته، فأخذ في تهيأة مدينته (فاس) بعد اشترى (موضع عُدْوَة الأندلسيين) من بني برغش بألفين وخمسمائة درهم. ثم (موضع عدوة القرويين) من بني الخير الزواغيين بثلاثة آلاف وخمسمائة درهم، وكتب بشراء الأرض الكاتب الفقيه (أبو الحسن عبدالله بن مالك الخزرجي الأنصاري) وذلك في سنة (١٩١هـ/ ٨٠٦م) وبعد أن تمت عملية شراء الأرض نزلها (ادريس الثاني) وضرب قبابه، ثم رفع يديه نحو السماء، وقال:

"اللهم اجعلها دار علم وفِقْه، يُتلى بها كتابك، وتُقام بها سُنَّتك وحُدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسُّنة والجماعة ما أبقيتها ..".

ثم شرع في البناء سنة ١٩٢هـ/ ٤ كانون الأول (ديسمبر) ٨٠٧م، وتصادف أن كان فقهاء (قرطبة) حينئذ ثائرين على (الحكَم الريفي) سنة (١٨٩هـ/ ٨٠٤م) وقاتلهم فتغلب عليهم، وهرب الناجون منهم إلى المغرب وتحديدا إلى فاس في

أول بناء لها أو أثناء بنائها، إذ يسمى الشطر الأول (العُدوة الأندلسية) أما لأن الأندلسيين ساعدوا في بنائه وسكنوه، أو لأنهم سكنوه فحسب. وفي العام التالي (١٩٣هـ/ ٨٠٧م) بني شطرا ثناي مُقابلاً للشطر الأول وَسُمي "عُدْوَة القرويين" أي "المَغاربة"[1] وجعل فيه داره، ودار الإمارة، وجامع الأشياخ، وسمي الشطران جميعا باسم (فاس) وظل يفصل بينهما طريق طويلة.

وهاجم (ادريس الثاني) قبيلة (مصمودة) ودانت لطاعته، واستولى على (أغمات) سنة (١٩٧هـ/ ٨١٢م) ثم فتح تلمسان وجدد مسجدها ومنبره، وأقام بها (ثلاث سنوات) يدبر ويدير شئونها، ومحا منها الدعوة (الصفرية) واقتطع غرب الجزائر حتى نهر شلف عن دعوة الأغالبة، التابعين للدولة العباسية ببغداد.

وتوفي (ادريس الثاني) في (جماد الآخر سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م)، وهو في السادسة والثلاثين من عمره.

وخلف ادريس الثاني (ابنه) محمد بعهد منه إليه، وأوصته (جدته) كنزة أن يشرك أخوته معه في سلطانه، فقسم مملكة أبيه بينه وبين أخوته على شكل إمارات.

فاختص نفسه – فاس، وأعمالها.

وولى أخاه القاسم – طَنْجة، وسَبتة، وتطوان، وقلعة حِجِر النسر، وبَسْكَرة، وتيطاون، وما يلحق بهذه المدن من بلاد وقبائل، أي اقليم الريف والهبط.

وأعطى أخاه عمر – بلاد صنهاجة الهبط، وغمارة، ومِكْناس.

---

(١) المقصود به الجماعة التي نزحت من القيروان إلى المغرب الأقصى.

وولى أخاه داود – بلاد هوارة، وتسول، وتازي (تازة) وما بينهما من القبائل مكناسة وغيانة.

وولى أخاه عبدالله – أغمات وبلد نفيس، وجبال المصامدة، وبلاط لمطة، والسوس الأقصى.

وولى أخاه يحيى – أصيلا، والعرائش، وبلاد زواغة. وخص أخاه عيسى – آزمور، وسَلا، وشالة، وتامسنة، وبر غواطة.

كما خص أخاه أحمد – مدينة مكناسة، ومدينة تادلا، وما بينهما من بلاد فازاز.

وولى أخاه حمزة – وَلِيلَى، وأعماله. ولابن عمه سليمان بن عبدالله – تلمسان.

أما الباقون من أخوته فقد أبقاهم في كفالة جدته (كنزة) لصغر أعمارهم عن الإمارة.

ولكنه مع ذلك لم يلبث أن انقسم أمراء هذا البيت على أنفسهم، فخرج عليه (عيسى) بمدينة ازمور ونبذ طاعته، ودعا لنفسه، فاستعان (محمد) بأخيه (القاسم) صاحب طنجة، فأبى، فكتب إلى أخيه الآخر (عمر) صاحب مكناس، فأمتثل لأمره، وسار لقتال (عيسى) على رأس جيس من البربر، وأوقع به الهزيمة وطرده، وأقره على عمل أخيه. وأمره بقتال أخيه (القاسم) لامتناعه عن حرب (أخيه) عيسى، فزحف (عمر) إلى ظاهر طنجة، وأحل الهزيمة بالقاسم، واستولى على ما بيه من الأراضي الممتدة على ساحل البحر حتى مدينة طنجة، وبذلك اتسعت ولايته (إمارته) فشملت اقليم الريف والهبط وتامسنة، وهو جد

(الحموديين الإدريسيين) الممتلكين لقرطبة في أوائل ق٥هـ/ ١١م بالأندلس، وتوفي عمر سنة (٢٢٠هـ/ ٨٣٥م) ولم يلبث أن توفي (محمد) في شهر ربيع الآخر سنة (٢٢١هـ/ ٨٣٦م).

وخلفه ابنه (علي) وكان في التاسعة من عمره، ولقب (حَيْدَرة) وهو أحد ألقاب الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقامت على تربيته الحاشية، وكانت أيامه أيام رخاء، حتى توفي سنة (٢٣٤هـ/ ٨٤٨م).

وخلفه أخوه (يحيى) الذي امتد سلطانه، واتسعت دولته، وحسنت أيامه، وشمخت (فاس) في العمران، وبني بها كثير من الفنادق والحمامات ورحل إليها الناس من البلاد والثغور القاصية.

وفي زمنه هاجرت إليها سيدة ثرية فاضلة من (القيروان) من قبيلة (هوارة) هي (أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري) ومعها أموال كثيرة أفادتها من ذويها، واعتزمت انفاقها في وجوه الخير، فاختلطت سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) المسجد الجامع المشهور بِعُدْوَة القرويين وهو المسمى باسم ﴿جامع القرويين﴾ الذي تحول فيما بعد إلى اليوم جامعة كبرى في فاس، ويذكر لأحمد بن سعيد اليفرني أنه بنى مأذنته على رأس قرن من اختطاطه. وتوفي يحيى بن محمد.

وولى ابنه (يحيى بن يحيى بن محمد) المسمى باسم أبيه، فأساء السيرة وكثر عبثه، فثارت عليه العامة فاختفى بعُدوة الأندلس، ريثما تخمد (الفتنة)، وبعد ليلتين من نزوله بها وافاه أجله.

وذكر بأنه قام (تمرد) تزعمه (عبد الرحمن بن سهل) في مدينة (فاس) فاعلم بذلك (علي الثاني ابن عمر) صاحب الريف، حيث كتبت إليه زوجة يحيى الثاني، تطلب إليه الحضور لإخماد التمرد. في حين أشار ابن خلدون بقوله:

"بلغ الخبر بشأن يحيى إلى ابن عمه علي بن عمر صاحب الريف واستدعاه أهل الدولة من العرب والبربر والموالى فجاء إلى فاس ودخلها وبايعوه، واستولى على أعمال المغرب".

وخطب له على منابر المغرب، واستقرت قدمه في البلاد فترة من الزمن، حتى تمرد عليه (عبد الرزاق الفِهْرِي) أحد أكابر (الخوارج الصُّفْرِية) وتبعه أهالي البلاد القريبة من مدينة فاس التي دخلها ففر (علي بن عمر) إلى قبيلة أَوْرَبَة البربرية.

على أن فريقا من أهل فاس (عدوة القرويين) بعثوا إلى (يحيى الثالث ابن القاسم بن ادريس) يطلبون منه الحضور إلى بلدهم، ولما وصل إليهم بايعوه على الطاعة، ثم تفرغ لحرب (عبد الرزاق الفِهْري الصُّفري) وأرغمه على الخروج من عُدْوَة الأندلس، فدخلها (يحيى) وبايعه أهلها ومن نزل بها من أهل الأندلس.

وبعد أن استقر الأمر له داخل فاس سعى لمقاتلة الخوارج الصفرية ودارت بينه وبينهم وقائع كثيرة، وَظَلّ (يحيى الثالث) أميراً على فاس وما يليها من بلاد المغرب الأقصى إلى أن قتله (الربيع بن سليمان) سنة (٢٩٢هـ/ ٩٠٤م).

وقام بالأمر (يحيى الرابع ابن ادريس بن عمر) صاحب الريف، فبايعه أهل فاس، وخطب له على منابرها، وامتد ملكه على جميع بلاد المغرب الأقصى.

وفيه قال ابن خلدون:

"كان أعلى بني ادريس ملكا وأعظمهم سلطانا، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة .."

أما الناصري فذكر:

"أن يحيى كان واسطة عقد البيت الادريسي، أعلاهم قَدَراً، وأبعدهم ذِكْراً، وأكثرهم عدلاً، وأغزرهم فضلا، وأوسعهم ملُكاً، وكان فقيهاً، حافظاً الحديث، ذا فصاحة وبيان، بطلاً شجاعاً حازماً، ذا صلاح ودين وورع ..".

حيث استمر واستقر ملك (يحيى الرابع) طيلة خمسة عشر سنة، بينما كانت الدعوة (العبيدية) قد نجحت واستطاعت تقويض الإمارة (الأغلبية) في افريقيا (تونس) واستولى على زمام الحكم في (طرابلس، وتونس، والجزائر) عُبَيْدالله المهدي، وطمع إلى ملك المغرب الأقصى فعقدا (مصالة بن حبوس) كبير (مكناسة) على رأس جيش ضخم لمنازلة أمراء المغرب الأقصى سنة (٣٠٥هـ/ ٩١٧م) فزحف (مصالة) في عساكر مكناسة وكتامة وفتح تاهوت، ثم التقي بيحيى بن ادريس بالقرب من مكناسة واحل به الهزيمة، ثم حاصر مدينة فاس واضطر يحيى الرابع إلى الصلح، على أن يؤدي إليه بعض الأموال، وأن يبايع المهدي، ويخلع نفسه، فأبقى له مصالحه في فاس وعقد له عمله عليها وحدها دون بقية بلاد المغرب. وعقد (مصالة) لابن عمه (موسى بن أبي العافية)

أمير مكناسة (يومئذ) على بقية المغرب الأقصى. وبذلك امتد نفوذ (العُبَيْديين) إلى بلاد الأدارسة.

ولما عاد (مصالة) إلى فاس سنة (٣٠٩هـ/ ٩٢١م) أوغر موسى بن أبي العافية صدره على (يحيى الرابع) وأغراه، فقبض عليه، واستصفى أمواله، ثم نفاه، فأقام عند بني عمه ببلاد الريف، فتصدى له موسى بن أبي العافية وحبسه، ثم أطلقه بعد عشرين سنة، فقصد افريقيا (تونس) وتوفي في مدينة المهدية سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م).

لما قبض (مصالة) على يحيى الرابع ولي (ريحان الكتامي) على فاس ولكن ولايته لم تطل حيث ثار عليه (الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس) المعروف (بالحجام) في سنة (٣١٠هـ/ ٩٢٢م) واستولى على فاس وقتل (ريحان) فبايعه الناس ودخلوا في طاعته، ثم مد نفوذه إلى ما جاوره من البلاد، وملكها عامين، ثم قام بينه وبين (موسى بن أبي العافية) خلاف، فزحف (الحسن الحجام) إلى موسى في سنة (٣١١هـ/ ٩٢٣م) واشتبك معه في قتال شديد، على مقربة من وادي (المطاحن) بين فاس وتازى، انتهى بهزيمة (موسى) وقتل من رجاله أكثر من ألفين، من جملتهم ابنه (منهل).

وعندما عاد (الحسن الحجام) إلى فاس غدر به عامله، وأرسل إلى موسى فأتاه بجيوشه، ودخل (عُدْوَة القَرَويين) ثم تمكن من الاستيلاء على (عُدْوَة

الأندلسيين) ومن الذين قتلوا في هذا الاقتحام (عبدالله بن ثعلبة بن محارب) وابنيه (محمد و يوسف).

وانقرضت بذلك (إمارة الأدارسة) بفاس وخضعت بلادهم لموسى بن أبي العافية، الذي انتقم من الأدارسة، وأجلاهم إلى الريف فنزلوا "مدينة البصرة" واختطوا بها "حصن النسر" سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م).

وتجدد لهم مُلك في (سبتة) و (أصيلا) و (إقليم الهبط) وكانوا يختارون شخصاً يقدمونه عليهم مثل (قنون بن محمد بن القاسم بن إدريس) المتوفى سنة (٣٣٧هـ/ ٩٤٨م).

فاتفقوا على تقديم (أبي العيش أحمد بن قنون) وكان يخطب لـ (عبد الرحمن الناصر الأموي) في الأندلس، وارتأى أن يخرج إلى الأندلس مجاهداً سنة (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) واستخلف أخاه (الحسن بن قنون) واتصلت مشايعته للأمويين في الأندلس، فهجم على الغرب (بلقين) فدخل في دعوة (العُبَيْديين) مما جعل المستنصر الأموي) يعد جيشا لحربه، ونازله في زمن (هشام المؤيد الأموي) جيش كثيف من الأندلس اضطره إلى طلب الأمان سنة (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م).

وبذلك انقرضت إمارة الأدارسة في اقليم (الهبط) كما انقرضت في فاس من قبل.

وأما (سليمان بن عبدالله) ابن عمهم، أمير تلمسان فإنه تملكها من زناتة ودانت له، و تملك أنحاء من (المغرب الأوسط) وورث ملكه ابنه (محمد) واقتسمه

أبناؤه، وظلوا يتوارثون (تلمسان وارشكول وجراوة وتنس) واستشعر بعضهم الولاء لبني أمية بالأندلس، وبالتالي ضاع ما بيدهم، جزء أخذه (ابن أبي العافية) وجزء استولى عليه أولياء (الدعوة العبيدية).

ولابد من الإشارة إلى أن إمارة الأدارسة تمثل أول حالة جديدة من انقطاع سلسلة الخلافة العباسية في المغرب الأقصى، أي أول إمارة أسست في أقاصي المغرب، وهي إمارة عربية إسلامية.

وقد أسهمت بقوة في نشر الإسلام (السني) في المغرب الأقصى وتلمسان، وتطهيرها من الصُّفْرية والرافضة، وعنيت بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره، ورواية الحديث النبوي الشريف، وتفقيه الناس أمور دينهم، وأخذت تتكون في مساجد المدن حلقات القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء، وعنى العلماء بتعليم المغاربة العربية، وأصبح في المغرب مؤدبون ومعلمون مختلفون. إضافة إلى تأسيسهم المدن والأرباض.

ويمكن استنتاج بعض العوامل والمقترحات التي ساعدت بشكل أو بآخر على سقوط (إمارة الأدارسة)، وهي:

١. قصر نظر بعض ولاتها بعد يحيى الأول ابن محمد الإدريسي.

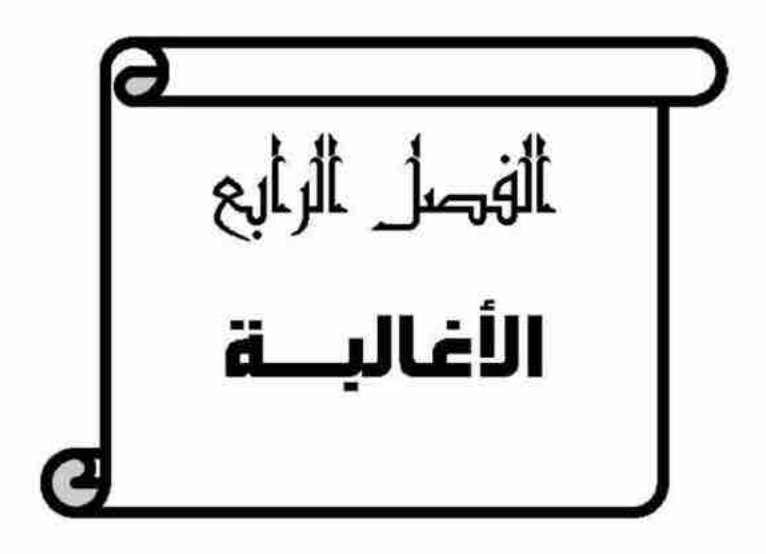
٢. الخلافات التي وقعت بين الأدارسة أنفسهم، مما تركت شرخا في النفوس، واعتصاراً في القلوب، ودورها في القضاء عليهم.

٣. عدم إعارة واهتمام بعض الولاة المتأخرين بشؤون الناس وتوثيق الصلة بهم.

٤. وجود أحزاب مناهضة لهم، كأحزاب الخَوارج، الصُّفْرية والأباضِية، والرَفْضية وأثرها في هذه الأوضاع، واستمرارية الإمارة.

٥. الثغرات القبلية التي انضوت تحت أجنحة هذه الإمارة.

٦. وقوع (الأدارسة) بين قوى مؤثرة عديدة، تنازعهم السيطرة والبقاء.
(الأمويون في الأندلس، الأغالبة في تونس، والعُبَيْديون في الجزائر وتونس).


الفصل الرابع
الأغالبـــة

الفصل الرابع
الأغالبـــــة

* إمـــارة الأغالبـــة: (١٨٤ – ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ – ٩٠٨م):

استشار الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ – ١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م) (هرثمة بن أعين) والي افريقيا (تونس) الأسبق، في والٍ كفء يوليه افريقيا، فأشار عليه بـ (إبراهيم بن الأغلب التميمي) الذي ولاه (هرثمة) على الزاب بالجزائر فضبطه بحزمه، وقوة شخصيته.

وكانت ولاية افريقيا (تونس) والمغرب تكلف (الدولة العباسية) نفقات باهظة بما ترسل إليها من جيوش، مضافاً إلى المبلغ المخصص إليها من قبل الخلافة في بغداد وقدرة (مائة ألف) دينار سنويا، يرسل إليها من ولاية مصر.

وكان (إبراهيم بن الأغلب) يتطلع لولاية افريقيا مثل أبيه (الأغلب بن سالم التميمي) الذي وَلأه الخليفة أبو جعفر المنصور افريقيا سنة (١٤٨هـ/ ٧٦٥م).

وكان الخليفة الرشيد يأمل في والٍ كُفءٍ وحازمٍ (كما أسلفنا)، ولم يجد بأساً في أن يوليه عليها، وَسَرَّ ابن الأغلب، وقال للخليفة الرشيد:

"إنني لا أحتاج إلى ما ترسله مصر لافريقيا من أموال، وأتعهد أن أرسل سنويا إلى بيت المال ببغداد أربعين ألف دينار ..".

وكأنه وفر للدولة العباسية أو تعهد أن يوفر لها (مائة وأربعين ألف دينار) سنويا، سوى ما كانت تكفلها الجيوش من أموال ونفقات ضخمة.

وأصدر الخليفة هارون الرشيد كتاب العهد إلى (إبراهيم بن الأغلب التميمي) بولاية افريقيا سنة (١٨٤هـ/ ٨٠٠م) وجعلها لعقبة يتوارثونها من بعده، وأن تظل تابعة للخلافة العباسية ببغداد وتدين بالولاء لها.

وشيء جميل ورائع أن يتصادف أن (الأب) يكرم من الخليفة الكبير (أبو جعفر المنصور) مؤسس مدينة بغداد سنة (١٤٥هـ/ ٧٦٢م) عاصمة الخلافة العباسية لخمسة قرون وربع القرن، وأن (الابن) يكرم من خليفة العصر الذهبي في التاريخ الوسيط (هارون الرشيد) فيالها من خطوة، وياله من تكريم!.

إن موافقة الخليفة الرشيد على جعل افريقيا ولاية لعُقب ابن الأغلب يتوارثونها، أي منح افريقيا نوعا من الخصوص لدى الخلافة العباسية، له أسبابه ومبرراته الذاتية والموضوعية، ضمن إطار الشعور بالمسؤولية الجماعية، ومنها:

١. قيام إمارة الأدارسة (١٧٢ – ٣٧٥هـ/ ٧٨٨-٩٨٥م) في المغرب الأقصى، وتهديدها بالتوسع على حسب الخلافة العباسية.
٢. قيام إمارة الأغالبة، لتكون رأس رمح في وجه التهديدات الإدريسية. كما لتكون حاجزا بين أطراف ممتلكات (الخلافة العباسية) و (الأدارسة).

٣. بعد المسافة بين بغداد مركز الخلافة العباسية والمغرب الأقصى، الذي حوى كثيراً من (التمردات) و (الحركات المناهضة) سياسية كانت أم دينية.

٤. ظل الأغالبة محافظين على ارتباطهم الروحي والاعتباري بالخلافة العباسية، وكذلك من خلال الصلات السياسية، والمبلغ المالي السنوي المتفق عليه، وإرسال الهدايا.

٥. تكريما لذكرى أهله في بغداد، ووفاء لأولي نعمته العباسيون، قام إبراهيم بن الأغلب مؤسس الإمارة الأغلبية بتأسيس مدينة في افريقيا التونسية أسماها "العباسية" تيمنا بالخلافة العباسية، وتأكيدا لولائه لهم.

٦. ظلت (الإمارة الأغلبية) تناهض كل خروج على الدولة العباسية (الأم) من دعوات مضادة، أو حركات مناوئة، أو جهات طامعة.

لقد ساس (إبراهيم بن الأغلب) افريقيا سياسة رشيدة، وحكيمة، وصمم على أن تكون له قوة عسكرية لحماية كيانه وتطلعاته، ولتنفيذ ما يوكل لها من مهام من قبل الخلافة العباسية. وشكلها من ثلاثة عناصر (المستعربة، والبربر، والعبيد) الذين يتكونون من الصقالبة – كان يجلبهم تجار الرقيق، وزنوج السودان الذين كانت تجلبهم القوافل – وهو بهذا أول من اتخذ (العبيد) لحمل سلاحه، بدلا من الرعية. كما كون قوة بحرية كبيرة سيكون لها أثرها في المستقبل (على من سيخلفه).

وكذلك اهتم (ابن الأغلب) بالعمران، فقد ابتنى مدينة تبعد بنحو ثلاثة أميال جنوب القيروان، وأسماها "العباسية" تيمنا بالدولة العباسية، ووفاء لها،

ولحسن ولائه تجاهها. وكان ذلك في سنة (١٨٥هـ/ ٨٠١م). ونقل إليها معسكرات جنده، وخزائن السلاح، والأموال، كما نقل إليها حواشيه، واتخذها (دار) إمارته، قاعدة أو مقراً لها.

* وهناك دوافع لبناء العباسية نذكر منها:

١. تبقى المدن رمز الخير والتمدن، والاتجاه نحو العمران دليل على الرقي، وعنوان على التحضر. ولاتخاذها (مقراً) جديداً بديلا عن القيروان.

٢. قد يكون تقليدا للخلفاء العباسيين في اتخاذهم قصورا خارج عاصمتهم (بغداد).

٣. الظهور بمظهر الأبهة والشموخ.

٤. الحرص على تخليد الذكر، وارتباط اسمه ببناء مَعْلم من المعالم الإسلامية.

وظل ابن الأغلب يدير دفة الإمارة بحزم وإرادة قوية طوال اثني عشر سنة، فتوفي سنة (١٩٦هـ/ ٨١١م).

وخلفه ابنه (أبو العباس عبدالله) حيث أخذ له البيعة أخوه (زيادة الله) لأنه كان مشغولا عند وفاة أبيه بإخماد (تمرد) قام في طرابلس، وكان ذلك في (٢١ شوال سنة ١٩٦هـ/ ٨١١م) ولم يكن سيوسا، بل جائرا متعسفا ظلوما مع رعيته، وقد غير (عشر الزرع) وجعله (ثمانية دنانير) لكل فدان سواء أخصب أم أجدب. وقد ضاق الناس به وبظلمه، ونصحه الصالحون والعلماء ولم ينتصح، وقيل أنه توفي من (قرحة) أصابته تحت أذنه نتيجة دعائهم عليه، في سنة (٢٠١هـ/ ٨١٦م).

وخلفه أخوه (زيادة الله بن إبراهيم) الذي بويع بالولاية في (ذي الحجة سنة ٢٠١هـ/ ٨١٦م) ووافاه التقليد من بغداد، من الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، وكان (زيادة الله) أعلم أهل بيته فصيحاً، وجالس العلماء حتى تضلع في العربية وآدابها، بصيراً بشؤون الإدارة والحكم، وذو قدرة وكفاية حربية، مكنته من تثبيت سلطان أسرته، وتغلب على خصومه، وتوجه نحو صقليّة فأخذ يعد العدة لفتحها، بادئا ببناء سور حصين حول ثغر (سوسة) وبنى بجوارها رباطا لحمايتها وحماية الساحل، واتخذها مرساة لأسطوله، وبني له فيها دار صناعة كبيرة، وأخذ يكثر من قطعه وسفنه، حتى أصبح أقوى اسطول حربي في البحر المتوسط ويهاجم به (سردانية) سنة (٢٠٦هـ/ ٨٢١م) وكان هجوما موفقا، ويرسل إلى صقلية سنة (٢١٢هـ/ ٨٢٧م) حملة بحرية بقيادة الفقيه (أسد بن الفُرات) قاضي القيروان لفتحها، ونزل الجيش بمدينة (مازر) والتقى بجموع الصقليين وهزمهم، وأخذ يسيطر على حصون ومدن متعددة، وفي حصار (سَرَقُوسَة) شرقي (صقليّة) توفي القائد (ابن الفُرات) ومع ذلك مضى الجيش في مهمته وفتوحه.

إن فتح (صقليّة) يُعَدّ من الأحداث الكبيرة في تاريخ الأمة، ولزيادة الله وقائده ابن الفُرات مجده وشرفه، ويدل أكبر الدلالة على قوة هذا (الأسطول البحري الأغلبي) الفاتح لصِقليّة، أن أهل مدينة (نابولي) الإيطالية يستنجدون بزيادة الله ضد أعدائهم المجاورين لهم من (الفرنج) سنة (٢٢٢هـ/ ٨٣٦م)

وينجدهم (الأسطول الأغلبي) وتظل (نابولي) بأيدي جنود المسلمين ومجارتهم زمنا ليس بالقليل.

وقام (زيادة الله) بتجديد بناء جامع عقبة في القيروان.

وتوفي سنة (٢٢٣هـ/ ٨٣٧م).

وخلفه أخوه (أبو عقال الأغلب بن إبراهيم) وفي أيامه أمن الناس على أنفسهم، وأحسن إلى الرعية والجند فاستمال قلوبهم إليه، كما فتح الجيش المرابط في (صقليّة) أكثر ما بقي منها سنة (٢٢٤هـ/ ٨٣٨م) وتمكن الأسطول من السيطرة على مدينة (باري) شرقي إيطاليا سنة (٢٢٥هـ/ ٨٣٩م). واتخذها قاعدة حربية ومرساة لسفنه في (البحر الأدرياتي).

وتوفي في ربيع الآخر سنة (٢٢٦هـ/ ٨٤٠م).

وخلفه أخوه (أبو العباس محمد بن إبراهيم) الذي ثار عليه أخوه أحمد سنة (٢٢٧هـ/ ٨٤١م) وقام بقتل وزيره، لكن محمد بن إبراهيم تمكن من القضاء على الثوار، وبالتالي على أخيه (أحمد) حيث نفاه وأهله وولده.

وأغارت بغتة سنة (٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) بعض سفن إيطالية على شواطئ الساحل، ونهبت بعض أقوات الناس، وسبت عدداً منهم، ساقتهم إلى إيطاليا عبيداً أرقاء وباعتهم في الأسواق، وغضب الأمير الأغلبي (محمد) حمية لمواطنيه، فأمر الأسطول بخروج قطعة منه لمهاجمة إيطاليا، وأرست عند مصب نهر (تُيبّر) المنحدر من جهة روما. وانتشر جنودها في ضواحي (روما) واقتحموها (عَنْوة)

واستولوا على بعض ما في كنيستها الكبرى من تحف، وظلوا يترددون عليها وعلى الحائها نحوا من شهرين، وعادوا دون أن يصاب أحد منهم بأذى.

وقام تمرد في تونس في سنة (٢٣٤هـ/ ٨٤٨م) بقيادة عَمْرو بن سُلَيم التجيبي المعروف بالقَوْبع، وتم له القضاء عليه. وتوفي سنة (٢٤٢هـ/ ٨٥٦م).

وتولى مقاليد الحكم ابن أخيه (أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب) وكان حديث السن ولكنه حسن السيرة، كريم الفعال رفيقا برعيته متجنبا للظلم، مولعا بالبناء والتشييد والعمران، فقام بعدة إصلاحات في (المسجد الجامع بالقيروان) فزينه بقية خارجة عن البهو، ومحراب رخام، مزودين بالنقوش.

وأعاد بناء (جامع الزيتونة بتونس) وزينه بقباب، ونقوش، وأعمدة رخام بديعة.

وبني الماجل (الصهريج) الكبير بالقيروان. وكذلك ماجل سوسة.

وفي عصره سيطر المسلمون في صِقليّة على مدينة (قصر يانة) المنيعة سنة (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م). في حين (تمرد) خوارج الإباضية من البربر في طرابلس سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) فسير إليهم أخاه (زيادة الله) فهزم الإباضية.

وتوفي في ذي القعدة سنة (٢٤٩هـ/ ٨٦٣م).

وخلفه أخاه (زيادة الله الثاني ابن محمد) الذي لم يطل به الزمان، إذ توفي بعد عام واحد في ذي القعدة سنة (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م) وله من الأعمال اتمام اصلاحات أخيه (أبو إبراهيم أحمد) في جامع الزيتونة بتونس.

وتولي بعده ابن أخيه (أبو الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد) [1] في سنة (٢٥٠هـ/ ٨٦٤م) ولقب بأبي الغرانيق، لأنه كان يهوى صيد طيور الغرانيق، حتى بنى قصرا يخرج إليه لصيدها، حيث انفق فيه ثلاثين ألف مثقال من الذهب!

وكان مسرفا في العطاء، مع حسن سيرته في الرعية.

وفي أيامه فتح الأسطول الأغلبي سنة (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) جزيرة (مالطة) وظلت تابعة للقيروان نحو (قرنين ونصف) حتى استولى عليها (روجار الأول) ملك (صقلية) سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م).

وفي سنة (٢٦٠هـ/ ٨٧٣م) أصاب المنطقة مجاعة عامة بالمشرق والمغرب، وانتشر الوباء والطاعون.

وتوفي أبو الغرانيق في ليلة الأربعاء (٦ جمادي سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م).

وخلفه أخوه (إبراهيم بن أحمد بن محمد) الذي كان يسير في أول إمارته على نهج أسلافه من حسن السيرة والعدل. كما كان مولعا بالعمارة والبناء فبدأ ببناء (مدينة رَقَّادَة) سنة (٢٦٣هـ/ ٨٧٦م) التي تبعد نحو ثمانية أميال جنوبي القيروان ونقل إليها أهل بيته، ودار إمارته، وبنى فيها بيت الحكمة كبيت حكمة هارون الرشيد والمأمون في بغداد. وجلب إليه طائفة بارعة من العلماء (أطباء ورياضيين، وفلكيين، وموسيقيين) وألحق به مكتبة ضخمة، فتح أبوابها للطلاب

---

(١) جمع غرنوق، وهو الكركي، أو طائر مائي طويل القوائم أو العنق.

والقصاد، وبعث ذلك في افريقيا (التونسية) نهضة علمية وثقافية واسعة. وأكمل بناء (قصر الفتح).

وفي أيامه فتحت (سَرَقُوسَة) آخر معاقل الروم في صقلية سنة (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م). كما أنشأ (محارس) و (رباطات) كثيرة على الساحل، واستحدث فيها (نظام إشارات بالأضواء) ترسل توا من رباط إلى رباط عند حدوث أي هجوم، بحيث إذا حدثت أي غارة بحرية للأعداء في أي بقعة على الساحل علمت بذلك في الحال الرباطات والمحارس الأخرى.

وأصيب (إبراهيم) في أواخر ولايته بمرض (السوداء) فأصبح ظلما جائرا، وأكثر من سفك دماء أهله وأقاربه لأتفه الأسباب ولكثرة شكه بهم، وعلمت بذلك (الخلافة العباسية) ببغداد فأرسلت إليه سنة (٢٨٩هـ/ ٩٠١م) أن يعفي نفسه من الحكم ويتنازل عنه لابنه (عبدالله) وَصَدَعَ لهذا الأمر، وسلم زمام الحكم لإبنه، وكأنما أراد أن يكفر عما صنع من سفك الدماء، وفقدانه السلطة والولاية تنفيذاً لأوامر الخلافة العباسية، فرأى أن يُمضي بقية حياته في الجهاد، وأعدّ أسطوله إعداداً كبيراً لمهاجمة إيطاليا في السنة نفسها، وعبر مضيق (مسينا) قاصدا (قلورية) وأرض إيطاليا الجنوبية، وسيطر على عدد من الحصون الإيطالية في الجنوب، وأصيب بمرض شديد سبب وفاته في (١٨ ذي القعدة سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م) فعاد به الأسطول إلى بارم في صقليّة ودفن بها، بعد ثلاثة

وأربعين يوما من وفاته، وبنى على قبره (قصر) أو (رباط) إلا أن ابنه (عبدالله) قرر نقل رفاته إلى القيروان.

تسلم (أبو العباس عبدالله) زمام الحكم من أبيه (إبراهيم) تنفيذاً لأمر الخلافة العباسية ببغداد، سنة (٢٨٩هـ/ ٩٠١م) وكان (عبدالله) على جانب كبير من التقوى والصلاح، وكتب إلى عماله بالرفق في معاملة الرعية، وأظهر التقشف، والجلوس على الأرض، وانصاف المظلوم، وجالس أهل العلم وشاورهم، وكان لا يركب إلا إلى الجامع، ولم يسكن قصر أبيه، ولكنه اشترى داراً مبنية من الطوب فأقام فيها حتى قتل يوم الأربعاء في (٢٨ شعبان ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) بأيدي (فتيين) من فتيانه الصقالبة بإيعاز من ولده (زيادة الله)!!

وخلفه ابنه (أبو مضر زيادة الله الثالث والأخير) الذي بدا زمنه بسفك الدماء، فقد قبض على أعمامه وأرسلهم إلى جزيرة (الكراث) – وهي جزيرة صغيرة تقع على بعد كيلو مترين ونصف شمالي تونس – وأمر بقتلهم، فقتلوا جميعا.

كما أمر بقتل (الفتيين) اللذين قتلا أباه وأمر بصلبهما على باب تونس!؟ كذلك قتل (أخاه) أبا عبدالله الأحول!؟

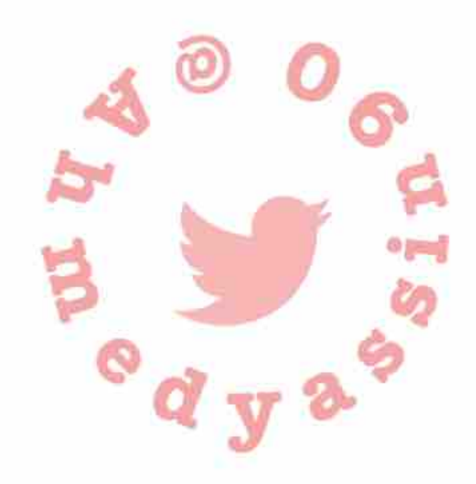
وعكف على لذاته ولهوه ومعاشرة المضحكين والعابثين.

وأنشأ مركب على (ماجل القيروان) سمي بالزلاج.

وفي هذه الأثناء، كان (أبو عبدالله الصنعاني) داعية (عُبَيْد الله المهدي) قد نشر دعوته (الإسماعلية) منذ (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) في قبيلة (كُتامة) بالجزائر، ودخل

في دعوته كثيرون، فكون منهم جيشا قضي به على (إمارة تيهرت الإباضية) وتقدم بمجموعة من (الجزائر) قاصداً القيروان، فسير إليه (زيادة الله) جيشا من أربعين ألف مقاتل بقيادة (إبراهيم بن حبشي) ولكنه هزم، فخرج (زيادة الله) بنفسه إلى مدينة (الأُربُس) واجتمع بجنوده وانفق عليهم الأموال الطائلة ليغريهم بقتال (الصنعاني) الذي تقدم في البلاد التونسية وأخذت المدن تتساقط في يده واحدة بعد الأخرى مثل (طبنة وبلزمة ورَقّادة وباغاية وقسيطلة وقَفْصة والأُربُس ومجانة وتيفانس وبسيبة وقَمودة).

ولما علم (زيادة الله) بذلك فزع، وخرج من (رَقّادة) ومعه وجوه رجاله وفتيانه وعبيده، وحمل (ما غلى ثمنه وخف وزنه!) وانتخب من عبيدة الصقالية (ألف خادم) ورحل من رَقّادة في (٢٦ من جمادي الآخر سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) وأصبح الناس غداة ليلة خروجه، وهجموا على قصوره برَقّادة فانتهبوا ما فيها من أموال وآنية. أما (زيادة الله) فقد سار في (الجادة) الموصلة إلى (طرابلس) فأقام بها (سبعة عشر يوماً) ثم سار بعد ذلك إلى فلسطين في انتظار نجدة بغداد له. ووافاه الأجل في مدينة الرملة. وانقرضت بذلك الإمارة الأغلبية في افريقيا (تونس)، التي استطاعت في نحو (قرن) من الزمان أن تنهض بها نهضة حضارية متميزة في البناء والإعمار، والفكر والثقافة، ونشر الإسلام في صقلية ومالطة وتعريبها أماداً طويلة، وآثاراً حميدة على مر الأزمان، وأن احتلهما النورمان.


@Ahmedyassin90


الفصل الخامس
العُبيْديــون

الفصل الخامس
العُبَيْديــــون

* الإمارة العُبَيْـديـة: (٢٩٧ – ٣٦٢ هـ / ٩٠٩ – ٩٧١ م):

كان (أبو عبدالله الصَنْعاني) قد تعرف على جماعة من (قبيلة كُتامة) الجزائرية في موسم الحج بمكة المكرمة، وقدم معهم إلى ديارهم، وكان بليغا جدلا فاعجب به من اجتمع حوله من هذه القبيلة، ولما اطمئن لهم أخذ يعلن بينهم سنة (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) أن آل البيت هم الأحق بإمامة المسلمين وخلافتهم، ودعا (للرضا المعصوم المستتر) [١] وأخذ المستجيبون له يتكاثرون ودخلت (كُتامة) في دعوته وطاعته، فأخذ ينظمها تنظيما عسكريا، وقضى على الإمارات الثلاث التي كانت تتقاسم الجزائر، (الأغالبة في شرقها، والرسميّة أو الإباضيين "عبد الرحمن بن رستم" بتاهرت في وسطها، والأدارسة في تلمسان في غَربيها).

وزحف الصنعاني بجيوشه نحو افريقيا التونسية وهزم جيش الأغالبة في (الأرْبس) سنة (٢٩٦هـ/٩٠٨م) وتقدم إلى القيروان ودخلها بجنوده واستولى على دواوينها وخزائنها، وكان قد أرسل إلى (عُبَيْدالله المهدي) أمامه يستقدمه من (سَلَمْيَة) في (سورية) مركز (الدعوة الإسماعيلية) وخشية وخوفا من وُلاة

---

(١) هو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم).

العباسيين، اتجه به أنصاره إلى (سَجِلْماسَة) مركز (الصُّفْرية) في المغرب الأقصى فسجنه صاحبها، وخلصه أبو عبدالله الصنعاني وقدم به إلى القيروان سنة (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) وسلمه مقاليد الحكم.

وسمى المؤرخون إمارته بإسم (العُبَيْدية) تمْييزاً لها في افريقيا (التونسية)، عن إمارة أحفاده (الفاطمية) بمصر.

بايع أهل القيروان (عُبَيْد الله) وتلقب (ولي المسلمين) أو (أمير المسلمين)، ويبدو أنه أحس في (أبي عبدالله الصنعاني) ندمه على ما أولاه من الإمارة والمُلك فبادر إلى سفك دمه، على قاعدة (جزاء سَنُمّار!؟).

وقد اختلف المؤرخون في نسب (عَبَيْد الله المهدي) إلى البيت الفاطمي وهل هو عَلَوي حقيقةً أو غير عَلَوي؟

وأخذ (المهدي) يصرف الأمور في الإمارة، وقرب منه قبيلة (صنهاجة) الجزائرية، وأرسل كبيرها (مصالة بن حبوس) سنة (٣٠٥هـ/ ٩١٧م) على رأس جيش إلى المَغْرِبَيْن (الأوسط والأقصى) واستطاع الاستيلاء على مدينة فاس من الأدارسة. كما أخذ دعاته يحاولون اقناع فقهاء

السُّنة بمبادئ الدعوة (العُبَيْدية) وعقدوا لذلك مجالس تجرد لهم فيها كبار الفقهاء في القيروان وناظروهم مناظرات حامية مبينين ما في (الدعوة العُبَيْدية الإسماعيلية) من مبادئ تخالف الإسلام في أصوله لا فروعه، مثل:

- تقديس الأمير العُبَيْدي.
- إدعاء أنه الصورة المجسدة لله في الأرض.
- إنه معصومٌ عن الخطأ.
- إنه يعلم الغيب.

إلى غير ذلك مما كان يزعمه دُعاة (عُبَيْد الله المهدي).

وشعر أن القيروان ليست – بفقهائها وشيوخها – دار أمن وأمان له ولأسرته، فرأى أن يختار موضعا على الساحل، لمدينة جديدة له، واختار رأسا بارزا بين (سوسة) و (صفاقس) وأخذ منذ سنة (٣٠٣هـ/ ٩١٥م) بتأسيسها، وتم انجازها سنة (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م) وسماها (المَهْدِية) نسبة إليه، ونقل إليها أهله، وجنده، ودواوينه، وأمواله، واتخذها "مقراً" لحكمه.

ولما استقام الأمر للمهدي أمر بعمارة مدينة أخرى إلى جانب (المهدية) وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان، وأفردها بسور وأبواب رسماها "زَوِيلة" وأسكن أرباب الدكاكين وغيرهم فيها، بحرمهم وأهاليهم، وقال:

"إنما فعلت ذلك أن أموالهم عندي، وأهاليهم هناك، فإن أرادوني بكَيْدٍ وهم في المهدية، خافوا على حرمهم هنا، وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبوابا، فأنا آمن منهم ليلا ونهارا، لأنني أفِرقُ بينهم وبين أموالهم ليلاً، وبينهم وبين حرمهم نهاراً!".

وأهتم ببعض القلاع والحصون.

وكذلك أعطى اهتماما متزايدا بالأسطول البحري التونسي.

أما (صقلية) التي عصت عليه فقد ردها إلى طاعته، وولى عليها أحد عماله.

كما ثارت عليه طرابلس وشبت بها (حركة إباضية) فردها ابنه و(ولي عهده) القائم، إلى الطاعة، وأغرمها (ثلاثمائة ألف دينار).

كما مضى (القائم) بحملة إلى (الإسكندرية) و (الفيوم).

وفي سنة (٣١٥هـ/ ٩٢٧م) خرج (القائم) إلى المغرب الأوسط وبني مدينة المُحَمَّدية (المُسِيلة) بالجزائر.

في حين بنى زِيري بن مناد الصِّنْهاجي مدينة "أشير" سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م).

وتوفي عُبَيْد الله المهدي سنة (٣٢٢هـ/ ٩٣٣م) وخلفه ابنه (القائم) أبو القاسم محمد واهتم – مثل أبيه – بالأسطول، وبعث على بعض قطعه وسفنه (يعقوب بن إسحاق) فهاجم (جَنَوة) و(كرسيكا) و(سردانية).

وتمرد عليه سنة (٣٢٦هـ/ ٩٣٧م) صاحب الحمار، أبو يزيد مُخَلَّد بن كَيْداد الزناتي من (الإباضية النُّكَّارِيّة)[1] الذين يستحلون سفك الدماء، وتبعه خلق كثير، وفي سنة (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) زحف إلى افريقيا التونسية، واستولى على تبسة والأُرْبُس وباجة وتونس وَرَقَّادة وعلى القيروان نفسها، وحاصر المهدية، واستولى على سوسة، وتوفي (القائم) يوم الأحد (١٣ شوال سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م).

(١) النُّكَّارِيّة: فِرقة من فِرق إباضية تاهرت انشقوا على الإمام عبد الوهاب وانكروا بيعته لأنها حادت عن الطريق الذي رسمه شيوخ الإباضية.

خلفه ابنه (المنصور أبو الطاهر إسماعيل) الذي استنجد بقبيلة (صنهاجة) فجاءته وفكت عن (المهدية) الحصار، وأرسل أسطوله إلى (سوسة) ونصرها ضد (أبي يزيد) واستبيح معسكره نهبا واحراقا، واتجه إلى (القيروان) فمنعه أهلها من دخولها وظل (المنصور) يتعقبه، وظفر به في أرض (كتُامة) بالجزائر في سنة (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م).

وابتهاجا بانتصاره هذا، أنشأ المنصور مدينة بالقرب من القيروان، سنة (٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) سماها (المنصورية).

وولي على (صقلية) ابن أبي الحسين الكلبي، وظلت إمارتها لعقبة حقبة طويلة.

وتوفي (المنصور) سنة (٣٤١هـ/ ٩٥٢م).

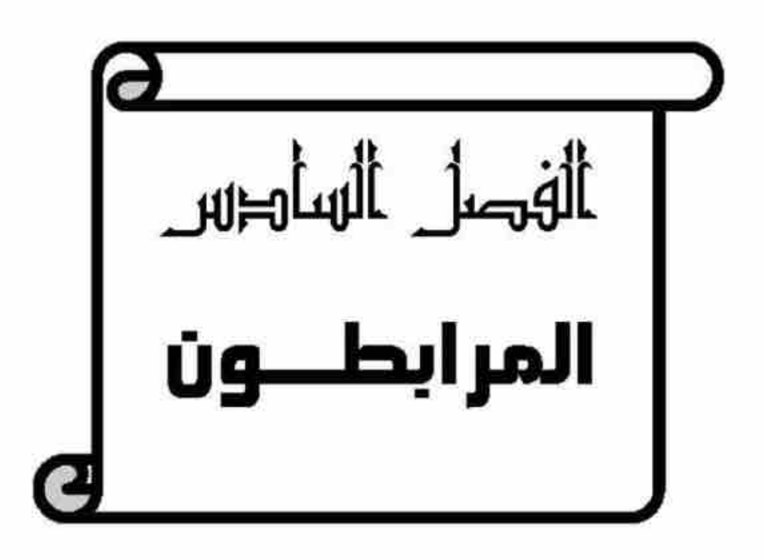
وخلفه ابنه (المعز) الذي هاجم المَغْرِبَيْن (الأوسط والأقصى) ففي سنتي (٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) و (٣٤٨هـ/ ٩٥٩م) دوخ قائده (جوهر الصقلي) البلاد المغربية إلى المحيط.

ويلغ المعز اضطراب أحوال مصر بعد وفاة (كافور الأخشيدي) ولإنشغال بغداد عنها بما كان بها من الفتن - آنذاك - فأرسل إليها قائده (جوهراً الصقلي) في جيش جَرار سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) ودخلها حتى (الفسطاط) دون مقاومة تذكر وخطب جوهر في الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) بإسم (المُعز) وأقام بمصر الدعوة الفاطمية وأستولى عسكره على الرملة وبعض مدن الشام.

وأرسل إلى المعز يحثه على القدوم إلى مصر فعزم المعز على المسير إليها، ورتب شؤون الإمارة في افريقيا، فأعطى (إمارة تونس) إلى صديقه بلكِين بن زِيري الصنهاجي) ووصاه بثلاث:

- ألاّ يرفع السيفَ عن البربر.
- أن يثقل أهل البادية بالخَراج.
- أن لا يولي أحداً من أفراد أسرته ولاية.

ورحل المُعز مودعا البلاد التونسية في شوال سنة (٣٦١هـ/ ٩٧١م) في موكب ضخم، وبعد أن هيئت له مسبقا (مدن صغيرة) ساعة انتقاله من افريقيا إلى مصر لغرض الاستراحة بها، تبعد الواحدة عن الأخرى (ثلاثين ميلا) على طول المسافة بين (المهدية) و (القاهرة) – كما قام بحفر الآبار بتلك المدن – التي بَناها له جوهر الصقلي – في ١٧ شعبان ٣٥٨هـ/ ١٧ تموز (يوليو) ٩٦٨م – والتي وصلها سنة (٣٦٢هـ/ ٩٧٢م) التي ظلت مقر إمارته إلى انقراضها ..


الفصل السادس
المرابطــون

الفصل السادس
المرابطـــون

*** الإمارة المرابطية:** (٤٤٨ – ٥٤١ هـ / ١٠٥٦ – ١١٤٦ م):

اتفق الكثير من المؤرخين على أن (المرابطين) أو (الملثمين) هم في قبيلة (لمتونة) الصهناجية، فقال ابن خلدون:

"كان هؤلاء الملثمون في صَحاريهم...وكانوا على دِين المَجُوسية، إلى أن ظهر فيهم الإسلام لعهد المائة الثالثة...وجاهَدوا جيرانهم من السودان عليه فأدانوا له واستَوثق لهم المُلك، ثم افترقوا، وكانت رياسةَ كل بيت منهم في بيت مخصوص".

ورأي بعض المؤرخين والمفكرين على أن (صنهاجة) من القبائل العربية الحِمْيَرِية، وأنهم ساروا من (اليمَن) إلى الشام ومنها إلى الساحل الإفريقي، حيث اتجهوا نحو المحيط الأطلسي واستوطنوا (صحراء المغرب لمشابهتها لصحراء العرب) المترامية الأطراف بين جنوبي المغرب الأقصى، وقبائل افريقيا المدارية السوداء حتى السَنِغال، وكلمة (السَنِغال) نفسها هي تحريف لكلمة (صنهاجة) على لسان (البرتغاليين) حيث وصلوا إلى سواحلها فَسَمَوْها (Senhagal) ثم أصبحت (Senhagal) وضلوا دهورا مُتَبَذين العمران ويعيشون على الأنعام

وألبانها ولحومها واتخذوا (اللِثام) على وجوههم بسبب ظروفهم الصحراوية أو الاجتماعية والذي أصبح شعاراً لهم بين الشعوب والقبائل.

قال النائب:

"...ولقبوا بالملثمين لأنهم كانوا يتلثمون على عادة العرب، فلما ملكوا ضيقوا لثامهم ليتميزوا به.

وقيل: لئلا يعرف الشيخ من الشاب، وكانوا لا يتركون اللِثام ليلاً ولا نهاراً، ويلقبون بالمرابطين..."(1). وكثروا في منطقتهم وتعددت قبائلهم ومنها (مسراتة وجدالة ومسوفة ولمطة وجزولة ولمتونة، وهي أهمها جميعا) ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة (جدالة) على زمن أميرها (يحيى بن إبراهيم الجدالي) اذي تجهز لأداء فريضة الحج سنة (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م) وفي عودته منه لقى (بالقيروان) (أبو عمران الفاسي) شيخ المذهب المالكي، فلزمه فترة، وقد حدث يحيى الشيخ عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده، وعن جهل قبائلها لأصول الدين وفروع الشريعة، وطلب من أبي عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة، وأبي تلاميذه الذهاب مع يحيى، مما جعل الشيخ أبو عمران يرسله إلى (الشيخ وجاج بن زلو اللمطي) فقيه المالكية بالسوس الأقصى في (سَجِلْماسَة) وأعطاه كتاباً يوصله إليه يؤكد فيه الاجتهاد في ذلك، وما كاد الفقيه (وجاج) يتسلم كتاب الشيخ حتى اختار له تلميذاً تقياً نابها من تلاميذه هو

---

(1) النائب، أحمد، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب (د.ت) ١/١٤٦-١٤٧.

(عبدالله بن ياسين الجِزولي) الذي دخل (بلاد صنهاجة) في صحبة زعميها (يحيى بن إبراهيم) فنزل على (قبيلة لمتونة) التي رحبت به وأكرمته، فاجتمع عليه نحو سبعين شخصا ما بين كبير وصغير ليعلمهم ويفقههم في أمور دينهم، فانقادوا له ووالوه، وعادوا فأنكروا عليه ما نهاهم عنه من بعض المحرمات، وشعر بالإحباط واليأس، فصمم على أن يتركهم وشأنهم، ويقصر نفسه على النسك وعبادة ربه، وأشار عليه (يحيى بن عمر) أحد رؤساء لمتونة أن يتنسك معه في جزيرة قرب مصب نهر السنغال، ونزلها معه وأقام فيها (رِباطا) وتسامع بنسكه الناس فأخذ يفد عليه كثيرون ممن في قلوبهم مثقال حبة من إيمان لينسكوا معه في رباطه بتلك الجزيرة، فلما بلغت عدتهم (ألفا) قال لهم:

"اخرجوا فأنتم المرابطون".

أي المجاهدون في سبيل الحق، وحمل كافة الناس عليه، ولذلك سموا بهذا الإسم (المرابطون)[1].

وخرج عبدالله بن ياسين مع هؤلاء (الألف) ومعه يحيى بن عمر اللمتوني وأخذ يعد العدة للجهاد في سبيل الله تعالى، وجاءته من صنهاجة البدوية قبائل كثيرة انضمت إلى دعوته، وظل (ابن ياسين) الزعيم الديني أو الروحي، بينما كان (ابن عمر) الزعيم الحربي، واتجه (شمالا) فسيطر على (درعة) و(سَجِلْماسة)

(١) الرِبَاط: من المرابطة أي ملازمة الثغر للجهاد، حيث ترابط خَيْل المجاهدين، بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا استطعتم من قُوةٍ ومِن رِباطِ الخَيْل تُرهِبون به عَدُو الله وعدوكم﴾ آية (٦٠) سورة الأنفال (٨).

واقليمها سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) وأصلح أحوال هذه المنطقة وَغَيَّرَ ما بها من المنكرات، وأسقط عن الناس المغارم والمكوس.

وعاد إلى الصحراء وتوغل في (الجنوب) فهاجم أهل السودان الغربي في حوض السنغال وانتصر عليهم، فوصل إلى شعوب افريقيا السوداء وأخذ ينشر فيها الدين الإسلامي الحنيف، ولم يلبث أن استشهد (يحيى بن عمر) في إحدى المعارك سنة (٤٧٧هـ/ ١٠٥٥م) فخلفه في قيادة الجيش أخوه (أبو بكر بن عمر اللمتوني) وبدأ فندب (المرابطين) للجهاد في بلاد المغرب الأقصى، وبعث (أبو بكر) ابن عمه (أبو يعقوب يوسف بن تاشفين) إلى واحات (درعة) فنجح في استردادها، وكان ذلك أول ظهور له. في حين فتحت منطقة السوس سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) واستدار العام ففتح من بلدانها (ماسة) على البحر المحيط و(تارودنت) على نهر السوس، ومحا (أبو بكر) منها (دعوة الروافض) وصعد إلى الشمال فسيطر على (اغمات) واتجه لجهاد (برغواطة) (المُتَنبأة) وقاومهم (الأدارسة والعُبَيْدِيون والأمويون في الأندلس) ولكن أحداً من هؤلاء لم يقِض عليهم قضاءً مُبْرما، حتى نازلهم (أبو بكر) بجموعه من المرابطين في وقائع سحقهم فيها سحقا، واستشهد (عبدالله بن ياسين) في بعض تلك الوقائع سنة (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) وذكر ابن الخطيب:

أن ابن ياسين أصيب في معركة بجرح مميت، فلما أحس بدنو أجله جمع أشياخ صنهاجة، وقال:

"يا معشر المرابطين، أناْ ميت في يومي هذا، وأنتم في بلاد أعدائكم فأياكم أن تحنثوا وتفشوا وتذهب ريحكم، كونوا ألفة على الحَقّ، وإخواناً في الله، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا، وإني ذاهب عنكم، فأنظروا من ترضونة لأمركم يقود جيوشكم ويغزوا أعداءكم ويقسم فيكم زكاتكم وأعشاركم ..".

ولما توفي (ابن ياسين) اختاروا زعيما آخر هو (سليمان بن عدو) ولكنه توفي هو الآخر سنة (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) ولم يخلفه أي زعيم آخر، وإنما توارث سلطته (فقهاء المالكية) الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين.

ومازال أبو بكر بواقع (برغواطة) حتى استأصل شافتهم. كما يقول ابن خلدون – ومحاهم من الأرض محوا. وبهذا تمت السيطرة على المغرب الأقصى. وبلغه خلاف كبير بين قبيلته ومسوفة في موطنهم بالصحراء فخشي مغبة ذلك وارتحل إليهم سنة (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) ليصلح ذات بينهم، واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه (أبو يعقوب يوسف بن تاشفين) ومن ذلك الحين انقسمت (دعوة المرابطين إلى قسمين):

قسم جنوبي: يجاهد في افريقيا المدارية بقيادة أبي بكر بن عمر ومن جاء من بعده، واستطاع السيطرة على بلاد السودان على (تسعين مرحلة) في رواية، وعلى مسيرة ثلاثة أشهر في بلدانها وأراضيها برواية أخرى. ومازال في جهاده حتى استشهد في احدى معاركه سنة (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) بعد أن ضرب أروع الأمثلة في نشر الإسلام والجهاد في سبيله.

قسم شمالي: كان بقيادة أبو يعقوب يوسف بن تاشفين وقد شمل ما سيطر عليه المرابطون – قبل ابن تاشفين – وما سيسيطر عليه بقيادته من المغرب الأقصى وغير المغرب الأقصى، من مثل تلمسان والأندلس.

كان (يوسف بن تاشفين) شجاعاً عادلاً مقداماً حازماً مدبراً لملكه مجاهدا في سبيل الله تعالى طوال حكمه، لا يعرف اللسان العربي، ولكنه كان يجُيد فهم المقاصد، وكان له كاتب (وزير) يعرف اللغتين العربية والمرابطية[1]. ولم يكد يستدير العام بعد توليه الحكم حتى رأى أن يتبنى في السهل الواسع شمالي أغمات وجنوبي نهر تنسيفت مدينة لتكون قاعدة (عاصمة) لحكمه وملكه، وسرعان ما أخذ في بنائها سنة (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) وهي مدينة (مَراكش) أي في الفترة التي غادر فيها الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني – الذي ينسب بعض المؤرخين بناؤها له – أرض المغرب إلى الصحراء، وقد شيدت على وفق مخططات (خرائط) رسمتها زمرة من المهندسين المهرة، وقامت على بنائها زمرة من العمال الحادقين، كما بني بها المسجد الجامع وإدارة الحكم وربما استغرق بناء المدينة خمس سنوات حيث تم بحدود سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م، وسرعان ما تكاثرت بها الجوامع والمدارس والحمامات والفنادق وأصبحت احدى المدن المهمة والكبرى.

وفي السنة نفسها (٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) جند (ابن تاشفين) الأجناد حتى اكتمل له ما يزيد عن (مائة ألف) فارس من صنهاجة وغيرها من قبائل المغرب

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب – ٤/ ١١٣.

وفي سنة (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) فتح مدينة وَجْدَة وتنس ووهران ومدينة الجزائر وجميع أعمال نهر شِلْف، وبذلك ضم إلى المغرب الأقصى الشطر الغربي من الجزائر (من المغرب الأوسط).

وفي سنة (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) فتح مدينة سبتة.

وبذلك حد المغرب الأقصى جميعه، جنوبا حتى الصحراء الكبرى، وغربا حتى المحيط، وشمالا حتى البحر المتوسط، ولم يكفه السيطرة على حدودة الشرقية غربي نهر المُلُّويَّة حتى مدينة وجدة، فقد مده شرقا وسيطر على شطر كبير من الجزائر.

وكتب القائم بأمر الله إلى يوسف بن تاشفين مرحبا ومباركا له.

وحين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة بإسمه، ونقش على الدينار:

"لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وتحت ذلك:

"أمير المسلمين يوسف بن تاشفين".

وكتب على الدائرة: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1].

وكتب على الصفحة الأخرى:

"عبدالله أحمد أمير المؤمنين العباسي".

---

(١) آل عمران (٣) آية (٨٣).

وعلى الدائرة:

"تاريخ ضربه، وموضع سكته..."[1].

اجتمع أشياخ القبائل على الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين وقالوا له: "أنت خليفة الله في المغرب وحقك أكبر من أن تدعي بالأمير إلا بأمير المؤمنين"، فقال لهم:

"حاشا الله أن اتسمى بهذا الاسم إنما يتسمى به الخلفاء وأنا راجل[2] الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد المغرب" فقالوا له: لابد من اسم تمتاز به، فقال لهم: يكون أمير المسلمين، فقيل إنه هو الذي اختاره لنفسه، فأمر الكُتاب أن يكتبوا بهذا الإسم، إذ كتبوا عنه أو إليه"[3].

ومما يدل على حسن إدارته وسياسته إنه كان يختار (الولاة) على ولايات إمارته الواسعة من خيرة رجال قبيلته الصنهاجية المعروفين بالأمانة والعدالة والنزاهة.

وضم إلى كل (والٍ) فقيها أو أكثر ليكون مستشاره في أحكامه بحيث تتمشى مع الشريعة الإسلامية.

ورفع عن كاهل الرعية المكوس والغرامات التي كان يتقاضها منهم حكامهم السابقون.

---

(١) الناصري، الاستقصا في دول المغرب الأقصى، ١٣ ٥٩-٦٠.

(٢) كذا هو في المطبوعة، وفي الحُلل، وقيل ذلك في البيان والمغرب لابن عذاري ٤/٢٧-٢٨.

(٣) ابن عذاري، المصدر نفسه.

وكانت الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، قد أصبحت اندلسات، وإمارات، وطوائف متعددات، وأخذت تتنافس وتتحارب في هذا العصر الذي سمي "عصر أمراء الطوائف".

فمقابل (التوحد) الذي حصل في المغرب الأقصى. نجد (التشرذم) قد زعزع وحدة الأندلس.

ومقابل مصالح الأمة هي الأساس في المغرب الأقصى، نجد (المصالح الخاصة) فوق أي اعتبار في الأندلس.

وأصبح دينهم وهدفهم:

"الإمارةُ ولو على حِجارة!".

ونشط أعداؤهم الفرنج في الشمال للانقضاض عليهم، وأخذوا يقدمون إليهم – قهرا – اتاوات ومغارم شتى، وخاصة إلى (الفونسو السادس) ملك (ليون وقشتالة) الذي استطاع سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) أن يسيطر على (طليطلة) بعد حرب دامت ست سنوات نتيجة لتواطئ أميرها (القادر بن ذي النون) على أخذ بلنسية. وأخذ يتحين الفرص للاستيلاء على بقية البلاد وخاصة (اشبيلية) ثم (قرطبة) التي كانت تحت أمره (المعتمد بن عباد) الذي شعر بذلك، ثم أعلن (الفونسو) غزو (اشبيلية) أثر حادثة مفتعلة اصطنعها واختلقها (يهودي) سفير الأذفونش وكان وزيره، فحواها أن ابن عباد قد تأخر في دفع المغارم، وعندما

أرسل إليه من يطالبه بها وكان من بينهم يهودي قد أغضب المعتمد فقتله! وآثر الاستعانة بأقرب وأكبر قوة إسلامية وهي (القوة المرابطية).

وقد قام المعتمد بعقد اجتماع مع (أشياخ) قرطبة وفقهائها لدراسة الموقف المتأزم في الأندلس، وعرض عليهم اقتراحه باستدعاء (المرابطين) فوافقوا على ذلك وطلبوا منه أن يكاتب يوسف بن تاشفين في العبور إلى الأندلس. فوجهوا بعثة قوامها قضاة مدنهم الرئيسة إلى (ابن تاشفين) تلتمس منه أن يبعث إلى الأندلس بجيش يدفع عنهم غارة الفرنج الاسبان، فوافق، وأعد سريعا جيشا لمنازلة الفرنج، وأعد له أسطولاً ضخماً عبر الزقاق سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) وأخلى له المعتمد صاحب اشبيلية مدينة الجزيرة الخضراء لتكون رباطا لجيش (ابن تاشفين) واتجه لحرب (الفونسو) في طليطلة، وانضم إليه المعتمد، والمتوكل أمير بطليوس، وعبدالله بن بلقين أمير غرناطة، وعلم الفونسو بمقدمة، وأنه منازله، أستغاث بملوك الفرنج في (اسبانيا) و (فرنسا) و (إيطاليا) و (البابا) في روما، وجاءته حشود من الفرسان، والتقت الفئتان في موضع يدعى (الزُّلاَّقَة) شمالي بَطَلْيوس، ودارت معركة حامية الوطيس مُزِق فيها جيش (الفونسو) شر ممزق، ويقال أنه كان (مائة وثمانين ألف) فارس، و(مائتي ألف) راجل، فنكل جيش (يوسف بن تاشفين) بهذا الجيش، وقتل منهم مقتلة كبيرة، وفر (الفونسو) هائما على وجهه إلى (طُلَيْطِلة) في شرذمة مبعثرة قليلة من مقاتليه مثخنا بالجراح

النفسية والجسدية. فجعل الأندلسيون (يوم الزَّلاَّقة) نظير القادسية في العراق، واليرموك في الشام[1].

وقد ترتب على هذا الانتصار الباهر نتائج كثيرة، نذكر منها:

١. انقذ الإسلام والمسلمين من أيدي (الفرنج) الذين كانوا يتطلعون إلى القضاء على الإسلام وطرد المسلمين من الأندلس.

٢. تألق نجم (يوسف بن تاشفين) وذيوع صيته وانتشاره في (المغرب والأندلس) بل أنه أصبح في نظر الكثيرين أنه المنقذ.

٣. حرر سرقسطة وحماها من الوقوع في براثن القشتاليين، وكانوا يحاصرونها عندما نزلت جيوش المرابطين بالأندلس.

كما انقذ "طَرْطُوشَة" من حصار (سانشو راميرت) لها. وكذلك (بَلَنْسِية) التي كان (برنجار رِيمُونْد) يتأهب لغزوها.

٤. حمى غرب الأندلس من خطر القشتاليين بعد أن تولى المرابطين الدفاع عنها وحمايتها.

٥. اسقط من قدر ملوك الطوائف في نظر رعيتهم، ومهد السبيل إلى إسقاط دويلاتهم، وسيطرة المرابطين على الأندلس.

وبلغت يوسف وفاة ابن له، فأضطر إلى العودة إلى مراكش بعد هذا النصر المبين، ولو أنه تابع بعده زحفه إلى طُلَيْطِلة لسيطر عليها.

---

(١) الناصري، الاستقصا في دول المغرب الأقصى، ٣/ ٩٥.

وفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) كان العبور (التالي) نتيجة لاستغاَثة أهل بلنسية بيوسف بعد المجزرة التي ارتكبها (الكمبيدو) وقام فيها بحرق قاضي المدينة (أحمد بن جحاف) في الساحة العامة، وقد ألف كتاب فيها (البيان الواضح عن الملم الفادح، كما استغاث المعتمد بن عباد بابن تاشفين ضد (الفونسو) فأجتاز (ابن تاشفين) الزقاق إليه، وكتب إلى من سواه من (أمراء الطوائف) ليلتقوا للجهاد، ولم يلبه سوى (أمير مرسية)، وَأَسَرَّها ابن تاشفين في نفسه، وانتصر أمير المسلمين ابن تاشفين على (الفونسو) وعاد إلى عاصمته (مراكش).

ودب الخلاف والشقاق بين (أمراء الطوائف) وَمَدوا أيديهم إلى (الفونسو) يدفعون له المغارم ويطلبون منه العون! وخاصة (عبدالله بن زيري) أمير غرناطة، فعبر يوسف الزقاق إلى الأندلس (للمرة الثالثة) وفيها خلع عبدالله بن زِيري أمير غَرْناطة وأرسله إلى مراكش. وترك وراءه (صهره) سير بن أبي بكر ليخلع أمراء الطوائف جميعا ومن أبى قاتله وأخذه أسيرا. وقاتله المتوكل أمير بطليوس فقتله، ونازله المعتمد أمير اشبيلية، وأسره ونفاه مع أسرته إلى اغمات بالمغرب واستولى المرابطون على (المرية) وفر ابن صمادح إلى افريقيا التونسية، كما استولى على دانية وشاطبة وبلنسية سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) وبذلك دانت إليهم الأندلس ماعدا سرقسطة فإن ابن تاشفين – بنظره الثاقب وحسه العسكري – رأى أن تظل مع أمرائها من (بني هود) لتكون ثغرا حربيا حاجزا بين فرنج الشمال والأندلس.

وفي سنة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م) أو سنة (٤٩٦هـ/ ١١٠٢م) عبر (ابن تاشفين) إلى الأندلس (مرة رابعة) لأخذ البيعة لابنه (علي).

وفي سنة (٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) توفي المجاهد (أبو يعقوب يوسف بن تاشفين) بعد أن عاش مئة سنة قضى منها في الملك (سبعة وأربعين) سنة، كانت من أسعد أيام المغاربة، ولم يبق في عصره نفاق، ولا ظلم، ولا سرقة، فكان يوسف قَواما بالإسلام عقيدةً وفعلاً وعملاً وتضحية وفداء وحضارة، يخلص للإسلام ويزهد الدنيا، ولا يهتم بنفسه، وكان يحب أهل الصلاح ويقربهم إليه، ويأخذ برأيهم ويكثر مشورتهم.

تولى إمارة المسلمين من بعده ولده (علي بن يوسف بن تاشفين) بعد مبايعته بمراكش. فورث ملكا كبيرا، وتمتع المغرب والأندلس في زمانه بالسعادة والرفاهية والعدل، وازدهرت البلاد في العلم والعمران، وقصده كثير من فلاسفة وأدباء وفقهاء زمانه، وكان معروفا بالحكمة والعدالة وحب الخير للناس، وكان كثير المشورة للمفكرين والعلماء. ومجاهدا كبيرا مثل أبيه. فقد وجه أخاه (تميما) الوالي على غرناطة سنة (٥٠١هـ/ ١١٠٧م) بجيش إلى اقليش شرقي طليطلة، ولقيه (الفونسو) وهزمه (تميم) هزيمة منكرة، قتل فيها ابن، الفونسو الوحيد وولى عهده، ومات (الفونسو) بعد هذه الموقعة بعشرين يوما متحسرا على هزائمه وفقد ابنه. وسيطر (تميم) على حصن اقليش وغيره.

وفي سنة (٥٠٣هـ/ ١١٠٩م) عبر (علي) إلى الأندلس بجيش جرار هاجم به طليطلة وفتح من أحوازها (سبعة وعشرين حصنا)، وفتح مَجْرِيط (مَدْرِيد) و (وادي الحجارة).

وفي سنة (٥٠٤هـ/ ١١١٠م) فتح (سير بن أبي بكر مدن شريش وبطليوس ورتغال ويابره وغيرها) وفي سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م توفي (سير بن أبي بكر) باشبيلية، وخلفه عليها (محمد بن فاطمة) حتى سنة (٥١٠هـ/ ١١١٦م).

وفي سنة (٥٠٨هـ/ ١١١٤م) توفي القائد (مزدلي) فاتحا ببلاد الفرنج.

وفي سنة (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) تملك المرابطون جزائر البيار (مَيورْقة و مَنورْقة و اليابِسَة) الجزائر الشرقية.

وأخطأ (علي) عسكريا، ولم يستفد من تجارب وخبرات أبيه في هذا الموضع، عندما أخذ (سرقسطة) من أمرائها وحماتها (بني هود)، وسرعان ما وقعت فريسة سائغة للفرنج سنة (٥١٢هـ/ ١١١٨م).

وفي سنة (٥١٣هـ/ ١١١٩م) عبر (علي) إلى الأندلس، ودوخ بلاد غرب الأندلس، وفتح (شنتمرية).

وفي سنة (٥١٦هـ/ ١١٢٢م) ثار (المهدي بن تومرت) ضد المرابطين، ودامت الحرب بين المرابطين والموحدين (خمسة وعشرين سنة) استشهد خلالها مئات الألوف من الأبرياء، لا في سبيل الله تعالى، بل في سبيل توازع الأفراد، وقضت على كثير من مشاريع الاصلاح التي كانت يقوم بها المرابطون.

وفي سنة (٥١٩هـ/ ١١٢٥م) استدعى (المعاهدون) من (نصارى غرناطة) (الفونسو الأول) ملك اراجون للاستيلاء على مدينتهم، فزحف إلى الجنوب، وعلم المرابطون بتحركاته فردوه على أعقابه خاسئا، وأجلوا عن (غرناطة) كل من كانوا سببا في استدعائه من النصارى إلى مدينة (سلا) على المحيط في المغرب، وبالمثل غلى مدينة مكناسة.

وفي سنة (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) هاجم (تاشفين بن علي) الفرنج وفتح ثلاثين حصناً في غربي الأندلس.

وفي سنة (٥٢٨هـ/ ١١٣٣م) وجه (علي بن يوسف) جيشا بقيادة (علي بن غانية) والي بلنسية ومرسية شرقي الأندلس إلى مدينة أفراغة شرقي سرقسطة فلقي جيشا لـ (الفونسو الأول ملك أراجون) فنازله وهزمه هزيمة منكرة.

وفي سنة (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) أخذ (علي) البيعة بمراكش لابنه (تاشفين).

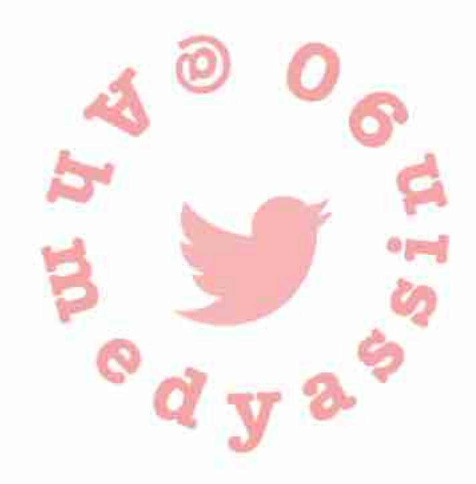
وتوفي (علي بن يوسف) سنة (٥٣٧ هـ/ ١١٤٢م).

وخلفه ابنه (تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين) وكان لا يقل شجاعة عن أبيه، وإن كان قد اعتبر عصره بداية لنهاية إمارة المرابطين، فلم تمض سنتان حتى كان بنيانها قد انهار من أساسه، فعلى الرغم من المحاولات البائسة اليائسة التي كان يبذلها (تاشفين) وعلى الرغم من ضروب الشجاعة والاقدام التي اتصف بها في معاركه التي خاضها ضد قوى الموحدين خلال الفترة القصيرة التي

قضاها، ولكنه سقط في إحدى المعارك صريعا قرب مدينة (وهران) في شهر رمضان سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م).

فتولى من بعده ابنه (إبراهيم) وهو آخر أمراء (المرابطين) وكان لا يزال طفلا. حيث حاصر (عبد المؤمن بن علي) زعيم الموحدين مدينة مراكش وظلت هذه المدينة محاصرة إلى أن دخلها سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م) وقتل (إبراهيم بن تاشفين) ومن معه (صبرا) وهم نحو نيف وسبعين ألفا.

وهكذا انتهى عصر المرابطين الذي دام تسعة وسبعين سنة، الذين عملوا على نشر الإسلام في السودان الغربي بالسنغال وغير السنغال، وقضوا على الصفرية والنحل الضالة، وعلى كل ما يسيء إلى الإسلام من قريب أو بعيد، وصانوا الأندلس من الضَياع، وظلوا أوفياء الخلافة العباسية في بغداد، وشيدوا المدن، وعمروا المساجد، واكثروا من الرباطات، وساد العدل والأمان، والغيت المكس والمغارم، ورخصت الأسعار، وعاش الناس في دعة ورخاء ..


@Ahmedyassin90


الفصل السابع
الموحـــدون

الفصل السابع
الموحـــدون

* الإمارة الموحـدية: (٥٤١ – ٦٦٨هـ/١١٤٦ – ١٢٦٩م):

١) الإمارة الموحدية .. النشأة والتطور:

تباينت الآراء وأختلفت حول ميلاد مؤسس الإمارة الموحدية محمد بن عبد الله بن تومرت الذي ولد في إحدى قرى بلاد السوس، وعلى الأرجح سنة (٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) من قبيلة هرغة من بطون قبيلة المصامدة، وكان أهل بيته أهل نسب ورباط. حيث تلقى علومه الأولى بمساجد بعيدة عة مراكز الإشعاع الحضاري، وكان منذ صغره مولعاً بالعلم، وكانت له طموحات بعيدة، فهو يترك القرية ويودع أهله ويشق طريقاً طويلة ليست بالسهلة للبحث عن مناهل العلم ودروب المعرفة، وعندما وصل إلى مراكش عاصمة المرابطين، انزعج بما رآه وشاهده في المدينة من مظاهر البذخ، وكذلك فساد أخلاق الناس، إذ لم يعتد على مثل ذلك في قريته المحافظة وخاصة اختلاط الرجال بالنساء وسفور المرأة، والرقص في الميادين والغناء، وغير ذلك من تلك المظاهر، التي لم يتأثر بها لكونها زائفة في نظره أو مدانة، وكذلك إطلاعه على الممارسات الخاطئة المنتشرة آنذاك،

وحيث أن الأندلس كانت من الأقطار المهمة فكريا وحضاريا، فقد اتجه (ابن تومرت) إلى الأندلس لعله يشفي غليله، ويروي ظمأه هناك من منابع تلك الحضارة ويجد ضالته، لذا فهو يبحث ويتصل بالمفكرين والعلماء، ورغم أن (الأندلس) كانت تعد من أملاك المرابطين، إلا أنها اتخذت اتجاها فكريا مختلفا، وذلك لبعدها عن حاضرة المرابطين، ولاتصالها وصلتها أصلا بالتيارات الفكرية في المشرق العربي الإسلامي. لذا شد الرحال إلى المشرق – وتنقل بين ربوع العراق وبغداد، وبلاد الشام، وأرض الحرمين الشريفين – وهنالك تتلمذ على أئمة الفكر فيه، وأطلع على المدارس الفكرية الغنية، وتشرب أفكارها، فقال ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م).

"كان ابن تومرت قد رحل في شبيبته إلى بلاد المشرق في طلب العلم وكان فقيها فاضلاً، عالما بالشريعة، حافظا للحديث، عارفا بأصول الدين والفقه، متحققا بعلم العربية، وكان ورعا ناسكا، ووصل في سفره إلى (العراق) واجتمع (بالغزالي) .. وقيل أنه جرى له حديث مع الغزالي فيما فعله بالمغرب من التملك، فقال له الغزالي: "أن هذا لا يتمشى في هذه البلاد ولا يمكن وقوعه لأمثالنا".

كما ذكر ذلك الزركشي (ت بعد ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م)، بقوله:

"ارتحل إلى (المهدية) وأخذ عن الإمام المازري، ثم انتقل إلى (الإسكندرية) وهو ابن ثماني عشر سنة وأخذ عن الإمام أبي بكر الطرطوشي، ثم انتقل إلى

بغداد وأخذ عن الإمام الغزالي ولما وصل (كتاب الأحياء) إلى المغرب أشار من أشار على الملك المتولى على (لمتونة) علي بن يوسف بن تاشفين، بتمزيقه، فبلغ ذلك الغزالي، فقال:

اللهم مزق ملكهم.

فقال المهدي له: على يدي يا سيدي.

فقال: على يدك!

فأكدت هذه الدعوة ما في علم المهدي من ذلك فتوجه إلى المغرب ..

وبعد رحلته الطويلة هذه عاد (ابن تومرت) إلى بلاد المغرب مكتمل الشخصية حاملا في جعبته أفكارا جديدة وآراء مستجدة، كما اطلع على بعض النظم والأحوال في المشرق العربي الإسلامي، مقارنا بين ما تعانيه الحكومات في المغرب من أمراض التدهور والنكوص، ورأى عن قُرْب ورَوية أن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية مهيأة لظهور إمارة قوية مهابة تطيح بالإمارات الضعيفة في المغرب وتقيم على انقاضها إمارة كبيرة إذا وُجِد (الشخص المناسب).

أن المتأمل في المبادئ التي جاء بها (ابن تومرت) ومقارنتها بتلك التي يؤمن بها المرابطون لا يجد فيها مبررا كافيا ومقنعا للموحدين للقيام في وجه الإمارة المرابطية المسلمة فالاختلافات في الفروع كانت قائمة وما تزال بين الفِرَق والمذاهب ولم تكن أساسا لبناء إمارة على أنقاض إمارة أخرى، فالمرابطون أيضاً

موحدين ويؤمنون بالكتاب الكريم والسنة الشريفة ومن هنا فإن الأمر كما يبدو يتجاوز تلك الاعتقادات المذهبية المختلفة.

إن أغلب ذلك يوحي بأن الدعوة الموحدية كانت في الأساس دعوة سياسية ترمي إلى إقامة إمارة كبرى في المغرب متخذة شعار الاحتساب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ستاراً تخفي ورائه أهدافها ونواياها وفي هذا السياق قال أحد المؤرخين المعاصرين (والحقيقة أن ابن تومرت في ذلك المذهب قد ظلم نفسه وضيع الموحدين خلفه، ذلك أن التوحيد هو جوهر الدين الإسلامي والمبدأ الأساسي المبني عليه فكل مسلم هو بالحتم موحد، لكن ابن تومرت حَمَّل الألفاظ ما لا تطيقه وكَفَرَّ معارضيه في سبيل تحقيق مآربه السياسية) وفي مدينة ملالة وقع حدث مهم في حركة ابن تومرت ذلك هو مقابلة ابن تومرت لعبد المؤمن بن علي وهو حدث مهم لابن تومرت لأنه كان يبحث عن شخص تتوافر فيه صفات معينة حتى التقى عبد المؤمن الذي أضفى على حركة الموحدين من عبقريته ما قادها إلى السلطة وفعل التاريخ وبتعيين ابن تومرت لعبد المؤمن خليفة له يكون قد أرسى مبدأ أساسياً لإمارة الموحدين قوامه الترشيح والانتخاب لمن تتوافر فيه شروط الإمارة بدلاً من نظام الوراثة الذي كان يمكن أن يبقى الإمارة بقيادة المصامدة قبيلة ابن تومرت وعندما انطلق ابن تومرت وجماعته إلى مراكش حيث عقدوا عدة مجالس القوا فيها درس الوعظ والإرشاد قائمين بالمعروف وناهين عن المنكر، وذكر ابن عَذاري المراكشي أن أمير المرابطين طلب من الإمام

المهدي بن تومرت أن يكشف عن غرضه من هذه الدعوة فقال: غرضي تغيير المنكر ورفع المغارم وألاّ تولى من قبيلتك أحداً وأن تتركوا اللِثام لأنه من شأن النساء ولا تجوز به الصلاة فزجره أمير المرابطين وأمر بإخراجه من مراكش وكان ذلك في أوائل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م.

وبالرغم مما كان يخفيه ابن تومرت وجماعته من ميول وأغراض سياسية وقيامة ظاهريا (بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) باعتباره مسلما غيوراً على الدين وقائماً على مصلحة الأمة منادياً بمبادئ (الاحتساب) إلا أن بعض الفقهاء في الإمارة المرابطية أدركوا فيه الروح السياسة والأغراض المذهبية التي يرمي وينوي تحقيقها في تلك البلاد، وقد ظهر ذلك جلياً في قول الفقيه مالك ابن وهيب قاضي مراكش لعلي بن يوسف بن تاشفين "احتفظ على الدولة من الرجل واجعل على رجليه كبلا لِئلاّ يسمعك طبلاً لأنه أظنه صاحب الدِرْهَم المربع. فبعث علي بن يوسف الخيل في طلبه".

وعندما شَعر ابن تومرت بخطورة الأمر خرج من مراكش إلى بلاد السوس حتى وصل (انجليز) حيث توجد قبيلة (هرغة) وهناك أخذ يختار أصحابه الذين سيعتمد عليهم في دعوته الموحدية والاعتقاد بالمهدي المنتظر، وفي دعوته للقبائل أكد ذلك الاعتقاد في حديثه بقوله: إن هذا العصر هو عصر انتشر فيه الظلم وعم أرجاء الأرض، وكثر فيه الظلمة، وسفاكوا الدماء، ولصوص المال، ومنتهكوا الحرمات، حيث أظهرت الفتن وتزلزل الأمر وامتد الهول وانقلبت العقائد

وعطلت الأحكام وفسدت العلوم وماتت السنن وذهب الحق والعدل وأظلمت الدنيا فجاء المهدي مع زمان الغربة مع تمكين العكس وعكست فيه الأمور وقلبت الحقائق وبدلت الأحكام بعد انتهائه من معاركه الأولى مع المرابطين عمل ابن تومرت على الانتقال إلى مدينة تينملل وذلك لموقعها الجبل الحصين والتي تبعد عن مدينة مراكش حاضرة المرابطين بنحو ثلاث فراسخ، قال الزركشي: (وانتقل بعد بيعته بثلاث سنين إلى جبل تينملل فأوطنه وبنى داره ومسجده بينهما حول منبع وادي نفيس وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا).

كما وصف ابن أبي زرع (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) أعمال ابن تومرت في هذه الفترة قائلاً: غزا بلاد رجراجة فأخذ بالدعوة إلى معرفة الله تعالى وتعلم شرائع الإسلام فسار في بلاد المصامدة وكل من اختلف عن دعوته غزاه الموحدون ففتح بلاد كثيرة ودخل في طاعته عالم كثير من قبل المصامدة، رجع إلى تينملل ثم غزا مدينة أغمات وبلاد هزرجة ثم غزا قبائل (درن) ففتح جميع قلاع (درن) وحصونه وأوديته وأطاع له جميع من فيه من قبائل (هنتاتة) و(جنفيسة) وغيرهم.

وما أن جاءت سنة (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) حتى كانت جيوش الموحدين مستعدة من حيث العدة والعدد وبالفعل فإن ابن تومرت أخذ يجهز جيشه للمعركة الكبرى التي يتحرك من خلالها إلى مراكش ومحاصرة جيوش المرابطين في عقر دارهم إلا أن المرابطين لما علموا بذلك قرروا ملاقاة الموحدين وصد هجماتهم قبل أن يصلوا مراكش وقد تم لهم ذلك حيث التقوا مع الموحدين في

كيك بجبل (إنجليز) وكان النصر حليف الموحدين وعندها تراجع المرابطون نحو مراكش وتبعهم الموحدون لأجل القضاء عليهم إلا أن المرابطين أعدوا جيشاً كبيراً قوامه مئة ألف مقاتل بقيادة الزبير بن علي بن يوسف ووقعت المعركة على مشارف مراكش قتل فيها أفراد كثيرين من الطرفين وكانت الغلبة لجيوش الموحدين أيضاً وتراجعت جيوش المرابطين إلى داخل المدينة في الوقت الذي استقرت فيه جيوش الموحدين في أحد البساتين المجاورة للمدينة في حين أخذ المرابطون يستجمعون قواهم وإمكانياتهم في الوقت الذي وصلت فيه بعض الجيوش الموالية من الأقاليم التابعة، قال البيذق:

"فلما كان بعد ذلك بأربعين يوما أقبلت العساكر نحو مراكش ودخل أبو بكر بن الجوهر بعسكر هسكورة ودخل البلد ووصل يحيى بن ساقطين بعسكر صنهاجة فدخل المدينة فأقبل (ياسين بن قليو) بعسكره وأقبل بعسكر المغرب ودخل مراكش ونزل بجانبنا في البحيرة".

وبدأت المعركة على أرض البستان وكان يوما شديدا على الطرفين حقق فيه المرابطون النصر وتراجع الموحدون بعد هزيمتهم الشنيعة وبعد أن فقدوا بعضا من العشرة الأوائل وسُميت هذه الموقعة بموقعة البُحيرة حيث يطلق المصامدة لفظ البحيرة على البستان وكان يوم السبت (١٢ جمادي الآخرة ٥٢٤هـ/ ١٣ آيار (مايو) ١١٢٩م).

ووصف الزركشي أخبار الموحدين في هذه الواقعة قائلاً:

"نزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم رجالة ما بهم إلا أربعون فارسا وقيل أربعمائة وذلك في سنة أربع وعشرين وخمس مائة فأقاموا عليها نحو أربعين يوما محاصرين لها أشد الحصار فجمع علي بن يوسف الناس وبرز إليهم من باب إيلان فهزمهم وأثخن فيهم قتلا وأسرا وفقد اليسير القليل من أصحاب المهدي وأبلى في ذلك اليوم عبد المؤمن بن علي بلاء حسناً".

وبعد هذه الموقعة تراجع الموحدون إلى قاعدتهم تينملل حاملين معهم نبأ الهزيمة إلى إمامهم المهدي الذي تخلف عن الجيوش بسبب مرضه وفي هذه الفترة توفي الإمام المهدي محمد بن تومرت بعد أن أكد على تولي عبد المؤمن بن علي الأمر من بعده يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك عام أربع وعشرين وخمسمائة/ ١١٢٩م.

٢) عبد المؤمن بن علي يتولى أمر الموحدين :

بعد وفاة الإمام المهدي بن تومرت، يتولى عبد المؤمن بن علي أمر الموحدين، وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ بيعته، حيث ذكر (البيذق) روايتان مختلفتان:

إحداهما: أن البيعة قد تمت بعد وفاة المهدي مباشرة.

الثانية: فقد أشارت إلى أن البيعة لم تتم إلا بعد ثلاث سنوات من وفاة المهدي، وهو التاريخ الذي أعلن فيه وفاة المهدي.

أما ابن القطان الفاسي (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م) فإنه ذكر أن عبد المؤمن بن علي بويع مرتان، ففي المرة الأولى كانت بيعة خاصة من قبل جماعة المهدي وهذه

قد تمت عقب وفاة المهدي مباشرة، أما المرة الثانية فإنها كانت بيعة عامة من قبل الموحدين، وهي التي جاءت متأخرة.

والأرجح أن يكون (عبد المؤمن) قد بويع من قبل الطبقة الأولى للموحدين عند وفاة المهدي مباشرة، وهو التاريخ الذي حدده البيذق دون إعلان وفاة المهدي للعامة..وبعد ثلاث سنوات من وفاة المهدي، وبعد أن اطمأنت القبائل لقيادة عبد المؤمن وحسن إدارته لجيوش الموحدين، واستتباب الأحوال له، أعلن عن وفاة المهدي، ومن ثم بويع البيعة العامة التي تمت سنة (٥٢٦هـ/ ١١٣١م).

كان عبد المؤمن بن علي يتمتع بخصائص متعددة جعلت منه شخصية بارزة، وقائدا شجاعا، قائد جيوش الموحدين نحو النجاحات والانتصارات ..

وقد وصفه ابن أبي زرع قائلاً:

"فصيح اللسان، فقيها في علم الأصول، حافظا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، حسن الرأي، نافذ البَصيرة .. منصوراً مؤيداً، لم يقصد قط بلدا إلا فتحها، ولا قاتل جيشا إلا هزمه، وكان مع ذلك سخيا كريم الأخلاق ..".

وقد تعانقت هذه الخصال الدينية والعلمية والعسكرية والتقت في شخصية عبد المؤمن على المنهج ذاته الذي اختطه ورسمه ابن تومرت فأصر على مقاتلة المرابطين وتأسيس إمارة الموحدين على دماء وأنقاض الأولى.

إن المتتبع لتحركات عبد المؤمن العسكرية يجد أنها تنقسم إلى قسمين مهمين:

الأول: يتمثل في تلك المعارك الخاطفة التي خاضها بأسلوب الكر والفر دون أن يحاول مواجهة المرابطين وجها لوجه، أي الحرب المتقابلة، وقد حقق هذا الأسلوب الحربي فرصة إخضاع الكثير من القبائل والقرى وإنضوائهم في صفوف الموحدين.

الثاني: فإنه يتمثل في ترك الموحدين لمركزهم في تينملل وإتجاههم إلى الشمال، ودخولهم في حرب (استنزاف) طويلة منذ سنة (٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) فبعد أن تقوت شوكتهم، وتنظمت صفوفهم قرروا الزحف المتواصل نحو الأقاليم والمدن المرابطية الكبرى، فقد استسلم أهل (تاكرارت) دون أي مقاومة، في حين تحصن أهل أغادير بالمدينة، ودافعوا عنها حتى سقطت بأيدي الموحدين. وعندها تحرك (عبد المؤمن) إلى فتح (فاس) فالتقى بيحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين، المعروف بالصحراوي، قائد (فاس) و (هرغة) فاضطر الأخير إلى الاتجاه إلى داخل فاس، وعندها حاصرها الموحدون لفترة غير قصيرة امتدت تسعة أشهر، وفي نهاية مدة الحصار استطاع والي فاس أبو محمد الجياني، أن يتصل بقائد الموحدين ويطب منه الأمان على أن يفتح له أحد أبواب المدينة. وقد تم ذلك، ودخل الموحدون فاس في ذي القعدة سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) ثم غادرها عبد المؤمن بعد أن أمر عليها (أبا عبد الله محمد بن يحيى الكدميوي) يساعده (أبا عبد الله محمد الجياني)، متجها إلى مكناسة التي لم يستطع الموحدون فتحها في المرة الأولى، وضرب الحصار على المدينة مدة حتى سقطت بيد الموحدين. وكان جيش

الموحدين حينذاك يبلغ ستة آلاف فارس، وبعد سقوط مكناسة اتجهت جيوش الموحدين إلى مراكش، وفي طريقهم انضمت إليهم جموع من قبائل صنهاجة وهسكورة ودكالة ودخلت في طاعة الموحدين، وعندما وصل الجيش إلى جبل (ايجليز) بالقرب من المدينة بنى (مقره) و (مسجده) وهذه علامة على أن الموحدون كانوا موقنون بالفتح والنصر. وضرب الموحدون الحصار على مراكش لمدة سبعة أشهر أضطر المرابطون في نهايته للخروج ومواجهة الموحدين، وكان أميرهم (اسحاق بن علي بن يوسف) وهو صبي صغير، فانهزموا وتبعهم الموحدون ففتحوا عليهم المدينة يوم السبت (١٨ شوال ٥٤١هـ/ ٢٤ آذار (مارس) ١١٤٦م) واستولى (عبد المؤمن) على جميع بلاد المغرب وانقضت منها إمارة لمتونة (إمارة الموحدين).

ووصف الوزير لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) هذه الظروف قائلا:

".. وطال الحصار عليهم، واشتد الجهاد بهم، ولكثرة خيلهم ورجالهم نفذ طعامهم، وفنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم، ومات منهم بالجوع ما ينيف على مئة وعشرين ألف، ولما طال عليهم الحصار، واشتدت أحوالهم هلكوا جوعا حتى أكلوا الجيف .. وعجزت عساكر اللمتونيين حينئذ عن الدفاع والامتناع بضعف العدد والعدة، وكثرة الضيقة والشدة ..".

ومما ساعد على فتح مراكش أن مجموعة من النصارى الذين كانوا في جيش المرابطين اتصلوا خفية بعبد المؤمن، واتفقوا معه على فتح أبواب المدينة مقابل أن يؤمنهم على حياتهم، وعلى هذا تم فتح باب أغمات في التاريخ المذكور، فدخل الموحدون المدينة في حين نجد رواية أخرى تشير إلى أن الموحدين تسوروا المدينة بالسلالم فدخلت هنتاتة وأهل تينملل من باب دكالة ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين، ودخلت هسكورة مع القبائل عن طريق باب بيتان واستلحم الموحدون أهل المدينة واستباحوا دمائها وقتلوا عامة أهلها وسبوا نسائهم كما يصف ذلك البيذق، ونسى هؤلاء الموحدون أن تناسوا ما أدعوه من الأمر بالمعروف والنهي وكأنهم دخلوا مدينة ليست بعربية ولا مسلمة حتى يقتلوا ما يشاؤون أبناء جلدتهم ويستبيحوا ما حرمه الله تعالى من ضرع وزرع، لِذا ظهر ما بطن من مراميهم وأهدافهم الغاطسة المتناقضة بما هو معلن من قبلهم ودعاتهم.

وهكذا سقطت إمارة المرابطين لتقوم على جثث موتاهم إمارة الموحدين التي أتخذت كذلك من مراكش عاصمة لها ويبدأ الموحدون مرحلة جديدة أساسها التوسع في المغربين الأوسط والأدنى والأندلس كذلك.

٣) التوسع في المغربين الأوسط والأدنى:

بعد سقوط إمارة المرابطين وقيام إمارة الموحدين التي بدأت مرحلة جديدة أساسها التوسع والهيمنة في المشرق (المغربين الأوسط والأدنى) والمغرب وكذلك في الأندلس على الرغم من أن عبد المؤمن اتجه بداية هذه المرحلة إلى المغرب

حيث وصل إلى مدينة سلا وبقي فيها شهوراً استقبل خلالها وفود أهل الأندلس من الأمراء والقضاة والشعراء إلا أنه جعل فتح المشرق يحتل الأولوية من اهتماماته وأهدافه، فقد اطمأن إلى حد ما على وضع الأندلس التي لم تكن حينذاك مصدر خطر على إمارة الموحدين الناشئة، ومن ناحية أخرى فإن الأحوال السياسية القائمة عند ذاك في المغربين تجعل إمكانية السيطرة عليهما أسهل من الاتجاه إلى الأندلس فالمغربان منقسمان إلى عدة إمارات صغيرة وضعيفة فقد تعرضت هذه البلاد إلى هجومات بني هلال وبني سُلَيْم، وغزوات النورمانديين الذين ضيقوا الخناق على أمراء هذه المناطق يضاف إلى ذلك فإن الموحدين كانوا في حاجة إلى ما يتضمنه المغربين من إمكانيات وطاقات بشرية ومادية لاستغلالها في الزحف نحو الأندلس. لمجمل هذه العوامل كان لابد لعبد المؤمن أن يتجه أولا إلى المغربين لضمهما إلى الإمارة الموحدية، لذا فإن عبد المؤمن بن علي قبل أن يخرج من مراكش سنة (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) إلى المغرب كان يقصد في المقام الأول الاتجاه إلى المغرب الأوسط للقضاء على إمارة بني حماد غير أنه اتخذ السرية التامة لتنفيذ خطته وبذلك لجأ إلى عملية تضليل كبيرة لأعدائه فاتجه ناحية المغرب، ففي مطلع سنة (٥٤٦هـ/ ١١٥١م) اتجه عبد المؤمن إلى المشرق وفاجأ بني حماد في الجزائر حيث دخلها على غفلة من أميرها يحيى بن عبد العزيز الذي فر إلى والده في بجاية ثم اتجه عبد المؤمن نحوهما إلى بجاية واللذين هربا إلى مدينة قسنطينة فتبعتهما جيوش الموحدين وضربت حصارا على

المدينة فاضطر يحيى بن عبد العزيز ووالده إلى التفاوض والدخول في طاعة الموحدين فاكرمهما عبد المؤمن ونقلهما إلى المغرب الأقصى.

ومما ذكر أن جيوش الموحدين دخلت مدينة بجاية دون مقاومة، وقد أشار البيذق إلى أن بجاية قد فتحت بدون إراقة الدماء حيث دخل أميرها أبو محمد ميمون بن علي في طاعة الموحدين في حين أحكم عبد المؤمن الحصار على قلعة بني حماد وقاتل من فيها إلى أن استولى عليها وقتل من فيها، وقد ذكر عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) أن أعداد القتلى بلغت ١٨ ألف وقبل أن يعود عبد المؤمن إلى مراكش تمردت قبيلتي بني هلال وبني سُلَيْم فجهز لهما عبد المؤمن جيشه الأول بقيادة صهره عبد الله بن واندين والثاني بقيادة يصلاسن بن المعز ففي الوقت الذي ترك الثاني ميدان المعركة أثر خلاف دب بينهما انهزم (ابن واندين) أمام الإعراب وقتل وبذلك وجد عبد المؤمن نفسه مضطرا لمواجهة الإعراب الثائرة وتمكن من إخضاع قبيلتي رَغبة ورَباح من الإعراب سنة (٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) واغتنم الموحدون غنائم كثيرة حملوها معهم إلى مراكش وبعدما تم لعبد المؤمن السيطرة الكاملة على المغرب الأوسط أمر عليه ابنه عبد الله بن عبد المؤمن.

وفي سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م) اتجه عبد الله بن عبد المؤمن في جيش كبير لفتح المغرب الأدني أو افريقيا وضرب حصار على تونس وقطع أشجارها إلا أن أميرها عبد الله بن خراسان استطاع أن يهزم ابن عبد المؤمن ويجبره على التقهقر إلى بجاية

وإذا (الحسن بن علي) آخر أمراء صنهاجة يستنجد بعبد المؤمن حين استولى منه (روجار الثاني) على المهدية وساحل افريقيا التونسية الشرقي وما أن علم بجلية الأمر حتى لباه بجيش جرار سنة (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) قادة عبد المؤمن بنفسه.

قال المراكشي: "فلما كان آخر سنة (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) أخذ عبد المؤمن في الحركة إلى افريقيا فجمع جموعاً من المصامدة وغيرهم من العرب وسار حتى نزل مدينة تونس" وقد وصف الناصري (ت ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م) ضخامة وترتيب هذه الجيوش قائلاً: "واجتمع عليهم من العساكر مائة ألف مقاتل من الاتباع والسوقة وأمثالهم وكان هذا الجند يمتد أميالاً وبالغ من حفظه وضبطه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة وهذا خشية الضبط والربط لا خشية الزرع، وإذا نزلوا صلوا بإمام واحدٍ بتكبيرة واحدة ولا يتخلف منهم أحد كائنا ما كان" وتمكن عبد المؤمن من فتح تونس عنوة وإخراج بنو خراسان منها في سنة (٥٥٤هـ/ ١١٥٩م) وفي الوقت نفسه سار إلى المهدية وضرب عليها حصاراً شديداً بجنوده برا وبأسطوله بحرا وطال الحصار إلى ستة أشهر وتمكن من فتحها يوم عاشوراء من شهر محرم الحرام سنة (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) وإخراج النصارى منها وأثناء الحصار جاءت على عبد المؤمن وفود من طرابلس وجبل نفوسة وصفاقس وسوسة مقدمين الطاعة والدخول في إمارة الموحدين، ووصف الزركشي حصار عبد المؤمن للمهدية قائلا: (وحاصر المهدية برا وبحرا ولما دخل بمن معه حصن المهدية وأقام بالمدينة شعائر الإسلام أمر بإصلاح ما تلف من

سورها بعد حصار ستة أشهر وكان دخوله إليها في المحرم من سنة (٥٥٥هـ) واقطع عبد المؤمن المهدية للأمير الحسن بن علي الصنهاجي وأشرك في حكمها أحد الموحدين ونقل عاصمة المغرب الأدني منها إلى مدينة تونس التي تضل عاصمة للبلاد إلى اليوم، ويقيم فيها دواوين الحكم ويطبق فيها وفي ولاياتها ما أتخذه بالمغرب الأقصى من التراتيب المخزنية في تنظيم المصالح الحكومية وضلت هذه التراتيب قائمة إلى نهاية حكم الإمارة الحفصية وبهذا استطاع عبد المؤمن أن يضم المغربين الأوسط والأدني إلى إمارة ومن ثم سار راجعا إلى مراكش، ويتوفى عبد المؤمن من مرض لم يمهله طويلا في ١٧ من جمادي الآخرة سنة (٥٥٨هـ/ ١١٦٢م) ويخلفه ابنه محمد الذي لم يدم أكثر من شهر ونصف حيث بايع شيوخ الموحدين أخيه أبو يعقوب يوسف وتظل افريقيا التونسية هادئة لأيام حتى إذا كانت سنة (٥٧٥هـ/ ١١٧٩م) ثار عليه بنو الرند في قفصة بشط الجريد فخرج إليهم وتغلب عليهم سريعا وعاد إلى عاصمته مراكش وتوفي سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) وخلفه ابنه يعقوب المنصور وكان من وزرائه الشيخ عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص جد الحفصيين وكان (تقي الدين ابن أخ القائد صلاح الدين الأيوبي) فكر في السيطرة على طرابلس الغرب وتونس للاستعانة بهما في محاربة الصليبيين وكلف لهذه المهمة (قراقوش) و (ابن قراتكين) واستولى الأول على مدينة قابس واستولى الثاني على مدينة قفصة وفي هذه الأثناء فكر (بنو غانية – أمهم من غانة) ولاة المرابطين في الجزائر الشرقية (البليار) والتي

تشمل (جُزر مَيورقَة ومَنورقَة واليابِسَة) أن يثأروا لإمارتهم من الموحدين وتسلل منهم إلى افريقيا التونسية علي وأخوه يحيى يريدان أن يقيما فيها إمارة ويَعُدا جيشاً للانقضاض على الموحدين، وعلم يعقوب بما يحدث في افريقيا التونسية فخرج إليها في جيش ضخم (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) وظل طوال طريقه يبني أعمالاً كالمارستانات (المستشفيات) للمرضى، والمساجد للمُصلين، وانقض على قفصة وقتل (ابن قراتكين) كما انقض على قابس ولم يجد بها (قراقوش) وأستولى على أهله وأمواله مما اضطره إلى إعلان طاعته.

أما أبناء غانية فحين علما بمقدم يعقوب المنصور انسحبا إلى شط الجريد وفيه لقي علي مصرعه سنة (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) وعاد يعقوب إلى حاضرته مراكش في حين أزداد يحيى بن غانية في معاداته للموحدين واستولى على شط الجريد والقيروان وطرابلس وقابس وصفاقس وتونس.

وفي سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) طلب القائد صلاح الدين الأيوبي مساعدة الأسطول المغربي ضد الفرنج الصليبيين إلا أن يعقوب المنصور لم ينصر صلاح الدين ولم يُلَبِ طلبه لأسباب عَقيمة سَقيمة بعيدةً عن روح الإسلام في الجهاد ومجابهة الأعداء حيث المخاطر تحدق بالأمة من كل حَدْب وصَوْب وأولي الأمر في الأمة في غيهم يعمهون!؟

وناقش المقري (١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) هذه الحادثة وملابساته بقوله: ﴿ولما أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمس الدين بن منقذ يستنجد به على

الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدسة ولم يخاطبه بأمير المؤمنين لم يجبه إلى ما طلبه وكان عنوان الكتاب الذي أرسله صلاح الدين إلى أمير المسلمين وفي أوله الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب.

أما ابن منقذ رسول صلاح الدين فقد مدح يعقوب بقصيدة عَدِتُها أربعونَ بيتا فأعطاه بكل بيت ألف وقال له إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك".

أما تعليق المقرى فهو "وما وقع من يعقوب في صلاح الدين إنما هو لأجل أنه لم يوفِهِ حقه في الخطاب، ونقول أولئك يعملون من أجل الأمة التي أصابتها الغمة، وهؤلاء يبحثون عن الشهرة ويعملون من أجل المدحة! فالأمة ورسالتها ومقدساتها في خطر داهم وأولي الأمر والسلطان ينتظرون الإطراء والمَديح ومعسول الكلام وبليغ السلام وجميل الأحلام! ولله في خلقه شئون! وتوفي يعقوب المنصور سنة (٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) وتولي بعده ابنه عبد الله الناصر وشغله أمر بني غانية خاصة يحيى، ورأى أن يرسل حملة بحرية كبيرة إلى أخيهم عبد الله في الجزائر الشرقية (البليار) وأستولى عليها أسطوله سنة (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م) وتتابعت هزائمهم في طرابلس والمهدية وتونس وعند تبسة في اقليم الزاب وانسحب من بقى منهم إلى الصحراء وذلك في سنة (٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م) وعاد الناصر إلى مراكش سنة (٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م) واستخلف أبا محمد عبد الواحد بن يحيى بن أبي حفص على افريقيا التونسية وطرابلس الذي نازل يحيى بن غانية في نواحي طرابلس وهزمه وفر جريحا، وبينما كان الناصر مشغولا بالقضاء على بني

غانية كان (الفونسو الثاني) يعد لمعركة فاصلة بينه وبين الموحدين وأعانهم البابا وملوك الفرنج فكانت معركة العقاب إلى الجنوب الشرقي من حصن الأرَك سنة (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) ولم يتنصر فيها الموحدون، وتوفي الناصر بعد الوقعة بشهور قليلة وكان ذلك إيذاناً بانهيار الجبهة الإسلامية في الأندلس خلف الناصر ابنه يوسف المستنصر وثار عليه أهله وذوي رحمه في المغرب الأقصى والأندلس وأضطرمت في الأسرة منافسات وحروب أهلية إلى أن قضى المرينيون أو بني مرين على إمارة الموحدين سنة (٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).

٤) الموحدون في الأندلس:

كانت الأندلس بالنسبة للموحدين جزءاً لا يتجزأ من الأرض الإسلامية التي ورثوها عن المرابطين والدفاع عنها هو بمثابة الجهاد في سبيل الله وعندما نجح الموحدون في تأسيس إمارتهم كانت الأندلس تعاني من عدة حركات إنفصالية تسببت في ضعف المرابطين في أيامهم الأخيرة.

قال المراكشي عبد الوحد بن علي التميمي (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م):

"لما رأى أعيان تلك الجزيرة من ضعف أحوال المرابطين أخرجوا من كان عندهم من الولاة واستبد كل منهم بضبط بلده فأما بلاد افراغة فأستولى عليها ملك أرغن لعنه الله ومَلك مع ذلك سَرَقُسْطَة أعادها الله للمسلمين وكثيراً من أعمال تلك الجهات".

ومن بين هذه الحركات ضد المرابطين ما قام به (علي بن عيسى بن ميمون) الذي استقل بقاديس ودخل في طاعة الموحدين سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) كما أرسل عبد المؤمن جيوشاً عديدة نزلت الأندلس فهاجموا شاريش ورندة فدخلتا في طاعة الموحدين كما انضوت إِشْبيلية تحت ضلال الموحدين بعد حصارها برا وبحرا سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٦م).

إن هذه الأحداث المتتالية والمتوالية جعلت عبد المؤمن يرسل إلى الأندلس جيشا بقيادة يوسف بن سليمان الذي نزل بإشْبيلية متخذاً منها حاضره للموحدين الأندلس وقد تمكن يوسف من السيطرة على بَطَلْيوس وشَنْتَمرية وقادِس وشِلْب ولَبْلَة وقُرْطُبَة وما أن دخلت سنة (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) حتى استقرت الأحوال في الأندلس وأنضوت تحت راية الموحدين، وفي هذه السنة سار عبد المؤمن إلى سلا حيث استقبل الوفود الأندلسية من الأمراء والقضاة والشعراء والعلماء التي تسابقت إلى البيعة وتقديم الطاعة والولاء، وفي سنة (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) أمر عبد المؤمن ابنه أبا السعيد عثمان ببناء جبل الفتح، وبعدما تم ذلك خرج عبد المؤمن إلى الجبل وأقام فيه شهرين أشرف خلالها على إدارة شؤون الأندلس فولي مدينة إشْبيلية وأعمالها ابنه يوسف، وولى قُرْطُبة وأعمالها أبا حفص عمر، وولي غَرْناطة وأعمالها ابنه عثمان، ثم رجع عبد المؤمن إلى مَراكش، وفي سنة (٥٥٧هـ/ ١١٦١م) تمرد (ابن مَرْدَنيش) وقائده (ابن

هَمْشَك) وزحف مستعينا بالفرنج نحو غَرْناطة فهزمهم عبد المؤمن وقتلهم ابرح قتل واستخلص غَرْناطة.

أ- معركة الجلاّب:

لعودة ابن مَرْدَنِيش إلى التمرد مرة أخرى تحرك أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م) من مراكش مُتجها نَحْوَ الأندلس بعد أن جهز جيشا كبيرا برفقة والي بجاية السيد أبي زكريا ووالي تلمسان السيد أبي عمران ونزل بحاضرة الموحدين في الأندلس إشْبيلية ثم أمر أخيه أبا سعيد عثمان في غرناطة بأن يتحرك باتجاه مرسية موطن ابن مَرْدَنيش والتقت جيوش الموحدين بابن مَرْدَنيش في موقعة الجَلاَّب بالقرب من مرسية فأنهزم ابن مَردنيش وقتل وهو متحصن بمرسية في رجب سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) وعندها دخل ابن مردنيش هلال في طاعة الموحدين وبقي أبو يعقوب يوسف خمسة أعوام في الأندلس حتى سنة (٥٧١هـ/ ١١٥٧م) عمل فيها وخلالها على استباب الأمن والقضاء على الفتن وصد كثير من هجمات البرتغاليين والقشتاليين.

ب- معركة الأَرَك:

خرج يعقوب المنصور من مراكش وعبر البر في جمادي الآخرة من سنة (٥٩١هـ/ ١١٩٤م) بجموع جرارة وجيوش محتشدة ونزل بمدينة إشْبيلية وما إن بلغت أخبار هذه التحركات إلى ملك قشتالة الفونسو الثامن حتى حشد الجيوش وأعد العدة للقاء المسلمين وكان هذا الملك قد شيد من قبل حصناً منيعاً في مكان

يسمى الأَرَك، أما يعقوب فقد سار في جيوشه حتى وصل بالقرب من مكان هذا الحصن حيث استقر بعسكره، وبدأت المعركة وأشتد القتال حتى اضطر القشتاليين إلى التقهقر والإلتجاء إلى حصن الأَرَك وأحاط المسلمون بالحصن إحاطة محكمة وأضرموا النار في أبوابة فاستسلم كل من فيه بعد أعطاهم يعقوب المنصور الأمان مقابل الإفراج عن خمسة آلاف من أسرى المسلمين فكان النصر حليف المسلمين المؤمنين.

ج- معركة العِقاب:

لما كانت الحاميات الوحدية المتمركزة في الأندلس غير قادرة على رد اعتداءات القشتالين المتكررة فقد استنجد الأندلسيون بمحمد الناصر ليقوم بنفسه بردع المعتدين.

وفي صباح يوم الإثنين (١٥ من شهر صفر سنة ٦٠٩هـ/ ١٦ تموز (يوليو) ١٢١٢م) بدأت معركة العِقاب وسميت بذلك لصعوبة الموقع ووعورته بهجوم الفرنج على مقدمة الجيش الموحدي وصمدت صفوف المتطوعة بقوة وثبات حتى بدأ الفرنج في التراجع ولكن سرعان ما أدركتهم فرق أخرى من جيش العدو التي رُجِحَت كفة الجيش الفرنجي ولم يَبْقَ أمام الناصر سوى التراجع وسلامة ما بقي من المسلمين، لقد كانت هذه الوقعة أول وهن دخل على الموحدين فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة مما كان لها أثراً سيئاً في كل من (الأندلس) و (المغرب) حيث كانت (بداية النهاية) كما يقال للموحدين، فقال الحميري عنها:

"... كانت هذه الوقعة أولَ وَهْن دخل على الموحدين، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة ...".

أما المَقَّرِي فقال:

"وكانت سَبَبَ َعف المغرب والأندلس .." وسقطت الإمارة الموحدية بدخول بني مرين مراكش في ١ محرم الحرام من سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م).

٥) العمـــــران:

إن من السمات المميزة لعصر الموحدين هو إزدهار العمران والذي تمثل بإقامة المدن الجديدة وتشييد المساجد والجوامع والمدارس والمستشفيات وإصلاح المدن القديمة والطرق العتيقة ومد الجسور الحديثة، وكانت أبرز معالمهم العمرانية تتجلي في عمليات جلب المياه للمدن والمزارع، وكذلك رعاية الفنون الجميلة ممثلا بالتزويق وعمل الفُسَيْفِسَاء والحصون والمنارات، وسنتناول بعض هذه الإنجازات بشيء من الإيجاز، ومن ذلك:

أ- مدينة رِباط الفتح:

لما وُلي المنصور رَأى أنه من الصعوبة بمكان أن يرسل النجدات من مدينة مراكش إلى الأندلس بعد الشقة بينهما لذلك فكر يعقوب – وأبوه يوسف بن عبد المؤمن من قبله – ببناء مدينة على ساحل البحر المتوسط يستطيع أن يقضي فيها فصل الصيف مع جيوشه، وقد أشار عليه بعض رجال بلاطه بأن يتخذ

مدينة سبتة معسكراً لجنده ولكنه رأى أن اقليم سبتة يقصر عن تزويد جنده ورجال بلاطه وخدمة ما يحتاج إليه من أقوات مدة ثلاثة أو أربعة أشهر من السنة لعدم خصوبة أرض هذا الإقليم ولأنه لايتسع لسكن هؤلاء الجند والخدم ورجال القصر لذا استقر الرأي على استكمال ما بدأ فيه الأب في بناء مدينة (الرباط) وفعلا أتمه يعقوب في بضعة أشهر، وكان ذلك في سنة (٥٩٣هـ/ ١١٩٦م) على أثر انتصاره في معركة الأَرَكْ المشهورة وقد بنيت في هذه المدينة المساجد والمدارس والقصور والدور والحوانيت، وفي خارج سوق المدينة من ناحية الجنوب أقام يعقوب المنصور منارة تشبه منارة جامع الكتيبة بمدينة مراكش ولكنها أضخم منها وجعل حياً لكل جماعة من السكان كالصناع والتجار والأدباء وغيرهم، وسرعان ما أزدهرت مدينة الرباط وأصبحت من أغنى مدن القارة الإفريقية، وساعد على ذلك حسن موقعها ورواج تجارتها بسبب سكنى الجند والخدم ورجال القصر، وكان يعقوب يقيم فيها ما بين شهري نيسان (ابريل) وأيلول (سبتمبر) أي أنها أصبحت الحاضرة الصيفية للموحدين في حين ظلت مراكش الحاضرة الشتوية والدائمة لهم على أنه يلاحظ أن ماء نهر وادي أبي الرّقاق الذي يصب في البحر عند مدينة الرباط يتصف بملوحة مائة ففكر يعقوب المنصور في جلب الماء من مكان يبعد عن المدينة باثني عشر ميلا بوساطة قنطرة حسنة البناء مقامة على أعمدة تشبه القناطر التي كانت مستعملة في بلاد الدولة البيزنطية ويخرج من هذه القنطرة فروع كثيرة تجلب الماء إلى جميع أحياء المدينة.

قال المراكشي التميمي:

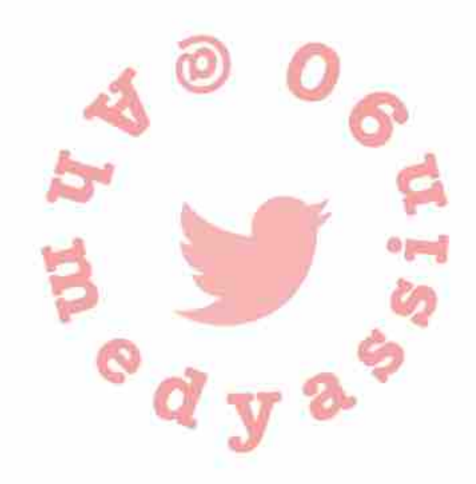
إن طول سور مدينة الرباط (يشبه سور مدينة مراكش) بلغ في مبدأ أمره نحو من فرسخ، وعرضه أقل من ذلك بكثير، وألحقت بمدينة الرباط أحياء كثيرة مثل حي يعقوب المنصور، وحي أجدال وغيرهما وبمرور الزمن وتعاقب الأيام أصبحت الرباط حاضرة رسمية لبلاد المغرب الأقصى منذ سنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٢م) ومن المدن التي أنشأت في عصر الموحدين مثل رباط تازي، أما المدن التي جددت في زمنهم فهي قُرطبة ومَراكش.

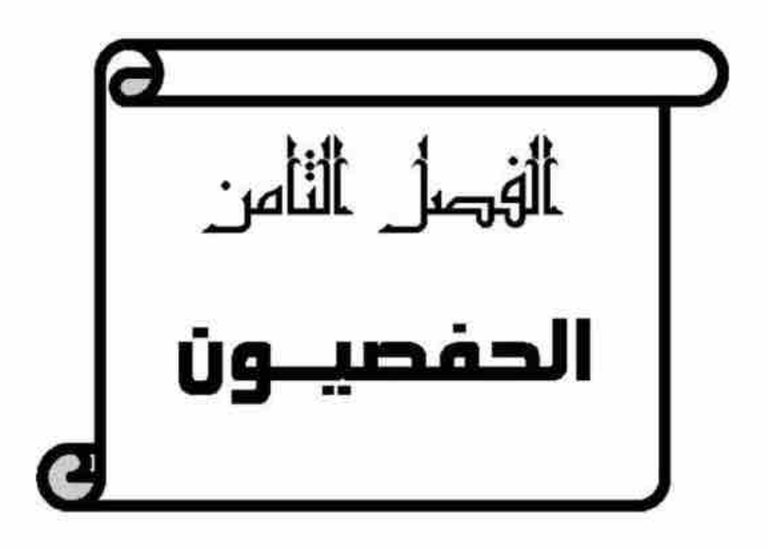
ب- المساجد والجوامع:

شيد الموحدون مساجد وجوامع عديدة منها: جامع الموحدين برباط تازي وجامع تينملل وجامع الكتبية وجامع القصبة بمراكش، وجامع الأندلس بفاس والمسجد الجامع وجامع حسان في الرباط، وفي الأندلس جامع القصبة الكبير بإشبيلية.

ج- الأســوار:

شهدت هذه الإمارة حركة عمرانية واسعة النطاق، وكثيراً من المنشآت التي أقيمت لأغراض عسكرية.


@Ahmedyassin90


الفصل الثامن
الحفصيـون

الرحيل إلى المغرب فنظر في من يوليه افريقيا فوقع اختياره على وزيره الشيخ أبي محمد عبد الواحد فعقد له ذلك سنة ثلاث وستمائة).

وقد يتساءل المرء لماذا اختار عبد الله الناصر أبا محمد عبد الواحد بالذات أميرا له على افريقيا وقبل بكل الشروط التي اشترطها أبو محمد دون اعتراض؟ وللإجابة على هذا التساؤل يبدو أن أبا محمد مع كونه يتمتع بكفاءة قيادية عالية كان في الوقت نفسه من أكبر شخصيات الموحدين من بعد عبد الله الناصر، ومن ثم فإنه كان الرجل المنافس للناصر من بين الموحدين ومن هنا فقد يكون الهدف من تعيينه وإبقائه في تونس هو إبعاده عن رئاسة الإمارة الموحدية في المغرب ويبدو أن أبا محمد قد شعر بذلك حيث أنه رفض في البداية فكرة بقائه في تونس ولم يقبل ذلك إلا عندما أصر الناصر على تعيينه وأرسل إليه ولده يوسف. وقد ذكر الزركشي قبول أبو محمد للإمارة موضحاً الشروط التي أملاها على الناصر والتي قبلها جميعها (فأجاب الشيخ أبو محمد إلى ذلك على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات افريقيا في ثلاث سنين وعلى أن يختار من رجال الموحدين من يجلس معه ويكون عوناً له في جميع ضرورياته، وأن لا يتعقب عليه في أمور توليه ولا عزل، فقبل الناصر شروطه ورحل عن تونس في شهر رمضان سنة ثلاث وستمائة فدخل مراكش في ربيع سنة أربع وستمائة).

إن ما أكد نوايا الناصر أيضاً هو أنه لم يف ببعض من هذه الشروط وخاصة ما تعلق بالمدة الزمنية التي سيقضيها أبو محمد بافريقيا فقد قضى أبو محمد على

مشاكل ابن غانية ورتب أمور افريقيا واستمر مخلصا للإمارة الموحدية طيلة الفترة التي قضاها بافريقيا حتى وفاته سنة (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) ولم يتم استدعائه إلى مراكش، وقد علق التجاني على حادثة تعيين الناصر لأبي محمد عبد الواحد فقال "وكأنهم أرادوا ابعاده عن مراكش ليجدوا السبيل إلى أغراضهم" وبعد وفاة أبو محمد انقسم الموحدون في افريقيا إلى فريقين الأول يقوده ابنه عبد الرحمن والثاني يقوده ابن عمه إبراهيم بن اسماعيل ولكن سرعان ما اتفق الفريقان على تولية عبد الرحمن الذي لم يستمر إلا ثلاثة أشهر حيث عزله السلطان المستنصر المقيم في مراكش وعين لشؤون افريقيا أبو العلاء بن أبي يعقوب ادريس بن عبد المؤمن الذي شهد له بالجود وحسن الوساطة والتدبير فأصلح الأحوال ورتب الأجناد، وكان بينه وبين الكاتب ابن نُخَيْل عدم انسجام مما أدى بالآخير إلى سجنه وقتله فخلفه أخاه عبد الله الذي عهد لأخيه أبا زكريا يحيى بحكم قابس وكذلك عهد لأخيه الآخر اسحاق بحكم الواحات الغربية من بلاد الجريد، ورغم استمرار افريقيا بالسلطة الموحدية لمراكش إلا أن سوء الأحوال واضطراب الأمور مما جعل طبقات الموحدين في افريقيا يفكرون في الانفصال عن مراكش وقد بدأ هذا التفكير واضحاً لدى ولاة افريقيا عندما طلب السلطان أبو العلاء ادريس الملقب بالمأمون من عبد الله مبايعته فامتنع عن ذلك وكل ما استطاع المأمون أن يقوم به هو أنه اتجه إلى أبي زكريا يحيى وطلب منه البيعة على أن يوليه كل افريقيا وقد نال تلك البيعة، وبذلك دخل أبو زكريا في عداء سافر مع أخيه

عبد الله وقد إنحاز الموحدون في افريقيا إلى جانب أبو زكريا وساعدوه على التغلب على أخيه عبد الله وبذلك تم له دخول تونس في الرابع والعشرين من رجب سنة (٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م) وبايعته بمجرد دخوله وأخذ يعمل على الاستقلال بولايته وذلك لتصارع أبناء سلطان الموحدين (يعقوب) على الإمارة وضعفها ضعفاً شديداً، وسرعان ما قطع أبو زكريا يحيى اسم سلطان الموحدين من خطب الجمعة وجعلها باسمه سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) وبذلك أعلن قيام إمارته الحفصية واستقلاله نهائيا عن – الموحدين، وفي سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) وقع مع (فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية) تفادياً لغارات أسطوله على ساحل تونس معاهدة اعترف فيها بتملك فردريك لجزيرة قوصرة (بنطلارية) بعد أن ضلت تابعة لافريقيا التونسية خمسة قرون، وكان من شروط المعاهدة أن تضل الإمارة الحفصية تأخذ نصف جبايتها وضل هذا الشرط ساري طوال حياة أبي زكريا وبمجرد وفاته انتقض هذا الشرط وأجبر المسلمون فيها وفي مالطا وصقلية على الخروج منها جميعا إلى العُدْوَة الإفريقية، ومن بقي آجبر على اعتناق النصرانية، وضل أبو زكريا يتعقب يحيى بن غانية حتى توفي في برية تلمسان سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) وبذلك أصبح أبو زكريا من أبرز الولاة والأمراء في المنطقة امتدت سلطته من مدينة الجزائر غرباً إلى طرابلس شرقاً بدون منازع وأنتشرت سمعته وشهرته في المغرب والأندلس، وفي سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م) بايعت تونس أبو زكريا ثانية ويقال أنه أعلن حينئذ قطع اسم سلطان الموحدين من خطب

الجمعة وذكر اسمه فيها وكأن بدء قيام الإمارة الحفصية في سنة (٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)، والرأي الأول سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) أكثر سَداداً وصَواباً.

وتكالبت حملات نصارى الاسبان ضد عرب الأندلس، وأخذت مدنهم الكبرى تسقط في حجورهم فأرسل إليه زيان بن مَرْدَنيش صاحب بلنسية سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) وفداً يستنجده لنصرته ضد أعداء الإسلام كان فيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الأبَّار القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) المؤرخ المشهور الذي ألقى قصيدةً مشهورةً يستحث فيها الأمير أبو زكريا لنجدة الأندلسيين:

"أَدْرِكْ بِخَيلك خَيْلَ اللهِ اندلساً   إِنَّ السبيلَ إلى مَنْجاتها دَرَساً"

وجاءت بيعة أهل إشْبيلية ومَرِيّة وباشر أبو زكريا بإرسال النجدة المتمثلة في مدد الطعام والأسلحة والمال وإن كانت هذه المعونات لم تمنع تلك المدن من السقوط، فقد انتشر الفساد وضاعت القيم وتفرق المسلمون، وكثر استعانتهم بالأعداء على بعضهم البعض، ففي الوقت الذي استنجد أهل إشْبيلية بأبي زكريا ضد ملك أرغونة كان محمد بن هود يمد يد العون إلى ملك أرغونة لحصار إشْبيلية حتى تم له الاستيلاء عليها سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) قال ابن خلدون: (وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم وظهر أمر بني حفص بافريقيا فأمَّل ابن مَرْدَنيش وأهل شرق الأندلس الأمير أبو زكريا وبعثوا إليه بيعتهم).

وتوفي أبو زكريا يحيى سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) وخلفه ابنه محمد الملقب بالمستنصر، وكان أبوه عنى بتربيته كما كان يرعاه عمه محمد بن عبد الواحد المعروف بـ (اللحياني) فدبر أمور الإمارة تدبيرا محكما وانتعشت تونس في عصره.

ولما قضى التتار في بغداد على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة العباسي المستعصم بالله سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وأصبح المسلمون بدون خلافة وخليفة، جاءته في سنة (٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م) بيعة أمير مكة المكرمة بالخلافة بإنشاء (عبد الحق بن سَبْعين) صوفي الأندلس وكان مجاورا هناك فَقُرِئت على الملأ واحتفل بها إحتفالاً مهيباً، ومن حينئذ تلقب بأمير المؤمنين وبايعه بني مرين بفاس.

وفي ذي القعدة سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) قاد (لويس التاسع) حملة كبيرة هاجم فيها تونس برا وبحرا وحاصرها سستة أشهر ودفن تحت أسوارها، ورجعت الحملة مدحورة تجر أذيال الخيبة إلى البحر المتوسط وما وراءه بعد أن أغرمها المستنصر مالا كثيرا.

وتوفي سنة (٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) وتولى بعده ابنه يحيى الواثق وكان حسن السيرة غير أن عمه أبا إسحاق إبراهيم ثار عليه سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م) واستولى على سدة الحكم، وأول ما قام به هو إطلاق سراح أبنائه الخمسة الذين اعتقلهم عمهم المستنصر، كما عمل أيضاً على التخلص من ابن أخيه يحيى الواثق وأبنائه وذلك بذبحهم جميعا بعد سجنهم بيوم واحد، في شهر صفر من سنة (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) ولم ينُج ابن الحببر وزير المستنصر وكاتب الواثق فجرده من

أمواله وممتلكاته وتخلص منه، وقف وصف الزركشي شخصية أبا اسحاق بقوله: (فيه غلظة وشجاعة وخفة وغيبة عن مجلسه في لهوه وأنسه، وكان لا ينظر لعواقب الأمور) وكان نتيجة ذلك تدهور أحوال الدولة واقتطاع أجزائها إلى الأعراب وفقد فيها الأمان وانتشرت السرقة، وخرج عليه في سنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) ثائر يسمى (أحمد بن مرزوق المسيلي) والملقب بـ (الدعي) فادعى أنه (الفاطمي المنتظر) وأنه يحيل المعادن ذهباً فانطلق الدعي من بجاية نحو الصحراء حتى وصل بني دياب في طرابلس الغرب، وأخذ ينشر دعوته بينهم على أنه الفضل بن يحيى الواثق بن المستنصر الذي قتله عمه أبو اسحاق إبراهيم مع أبيه وأخويه الطاهر والطيب وكان قد شهد له بتلك الدعوة (عبد) يحيى الواثق وأسمه (نصير) والمعروف (نوبي) الذي رأى في الدعي شبها للفضل ابن سيده فاستغل الدعي ذلك، وأعلن أنه الفضل بن الواثق بشهادة العبد وعندها أخذ يعد العدة نحو تونس وانتشرت أخبار قدومه وحاول أبو اسحاق إبراهيم الوقوف في وجهه لكن صفوفه كانت تضعف يوماً بعد يوم أمام قوة خصمه وإصراره وتمكن من الإستيلاء على تونس بمساعدة أعراب قابس الهلاليون.

وبعد سنة ونصف من حكمه تصدى له الأمير أبو حفص عمر أخو يحيى الواثق وجمع له جموعا سنة (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م) وقبض على الدعي وقتله وتولى شؤون الحكم وسلك سياسة حكيمة قوامها اللين والتعقل مبتعدا عن أسلوب القتل والتطرف لذلك وصف ابن منقذ في كتابه (الفارسية في مبادئ الدولة

الحفصية) أبو حفص بأنه كان هناء وأمن وعدل إلا أن ابن عمه أبو زكريا بن أبي اسحاق يحيى بن إبراهيم خرج عليه بالجزائر واستقل ببجاية وقسنطينة وتلقب بـ (المنتخب لإحياء دين الله) وتوفي عمر سنة (٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م). وخلفه أبو عصيدة محمد بن الواثق وحاول استرجاع القسم الشرقي من إمارته في الجزائر إلا أنه أخفق، وفي صفر في سنة (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) صنع المنجنيق بدار الصناعة بتونس ورمى به هناك ثلاثة أحجار لتجربته، وتوفي أبو عَصِيدَة سنة (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) وبويع الأمير أبو بكر ابن الأمير أبي زيد عبد الرحمن إلا أن أبو البقاء خالد خرج عليه ودخل تونس وبايعه الناس وأشياخ الموحدين سنة (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) في الوقت الذي قتل فيه أبو بكر وسمي شهيدا إلا أنه سرعان ما أعلن أخيه أبو بكر الحفصي الذي ولاه قسنطينة خليفة وشق ولاء الطاعة عن أبي البقاء خالد سنة (٧١١هـ/ ١٣١١م)، ومن ناحية أخرى فإن تونس عرفت في الوقت نفسه شخص هو أبو يحيى زكريا بن أحمد الليحاني الذي استولى على زمام الأمور سنة (٧١١هـ/ ١٣١١م) بتحريض من أبي بكر الحفصي وأن يوقع الهزيمة في صفوف جيوش أبو البقاء ويدخل تونس ويقبض على أبي البقاء ويقتله وبذلك بويع اللحياني أميراً على تونس وكان شيخاً كبيراً فتخلى عن الحكم لإبنه (محمد أبي ضَرْبَة) تاركا تونس متجها إلى قابس حاملا معه ما استطاع من حمله من ذهب ومال وذهائر وكتب إلا أن أبا بكر الحفصي أمير بجاية ثار وهزم أبو ضربة وقبض على صولجان الحكم في تونس وتلقب بالمتوكل على

الله، وخرج عليه بعض الأمراء من أسرته ووصل الحال بهم إلى أن استنجدوا بصاحب تلمسان أبو تاشفين من بني زيان الذي حاول مرارا التدخل في شؤون تونس وضم بجاية إلى تلمسان إلا أن السلطان أبو بكر الحفصي تغلب بحكة ودهاء على هذه المشكلة بالتحالف مع خصم تلمسان والمتمثل في بني مرين في مراكش حتي يتمكن من الضغط على تلمسان من الناحية الغربية وقد عزز هذا التحالف بالمصاهرة التي عقدت بين الأسرتين خطبة فاطمة الحفصية لأبي الحسن المريني ولي العهد وهاجموا معا ديار بني زيان في تلمسان سنة (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) وتوفي السلطان أبو بكر الحفصي في اليوم الثاني من رجب سنة (٧٤٧هـ - تشرين الأول (أكتوبر) ١٣٤٦م) قبل أن تزف ابنته الثانية إلى السلطان المريني أبو الحسن، وبايع الناس أبو حفص الثاني عمر متجاوزين ولي العهد أبي العباس أحمد أخوه الذي كان والياً على الجنوب التونسي بكامله، وقد أشار الزركشي إلى أن تحويل هذه البيعة عن صاحبها كان من تدبير الحاجب (ابن تافراجيّن) إلا أن أبو العباس أحمد لم يستسلم لذلك وسرعان ما أعد الجيوش واتجه نحو تونس في الخامس من رمضان سنة (٧٤٧هـ/ كانون الأول (ديسمبر) ١٣٤٦م) ولما بلغ الخبر إلى أبي حفص الثاني خرج فارا بعد أن خذله ابن تافَرْجِين وانضم إلى أبي العباس أحمد ولم يَمضِ على أبي العباس في تونس أكثر من أسبوع حتى فوجئ بعودة أبي حفص وجيوشه واحتل المدينة وقتل أخوه أبو العباس و (أبو فارس عزوز) و (أبو البقاء خالد) ويذكر الزركشي أنه «قتل في ذلك اليوم في المدينة

وفي الربض نيف وثمانون رجلاً من العرب الواصلين صحبة أبو العباس أحمد بتونس وانتهز السلطان المريني أبو الحسن صهرهم فرصة هذه الفتن فاتجه من مراكش بجيش جرار إلى تونس سنة (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) وفتك بسلطانها أبي حفص واستقام له ملك المغربين الأوسط والأدنى لمدة سنتين ونصف حيث جعل زوج ابنته يحيى بن سليمان العسكري حاكماً على تونس غير أنهم لم يحسنوا السياسة مع الإعراب كما كان يحسنها سلاطين تونس فثارت عليهم قبائل أولاد مهلهل وبني كعب وبني حكيم والتفوا حول (أحمد بن عبد السلام بن عثمان بن أبي دبوس) المعروف بـ (الخياط) ونازلوا المرينيين في القيروان في المحرم سنة (٧٤٩هـ/ نيسان (ابريل) ١٣٤٨م) وكسبوا المعركة ونازلوهم في تونس وهزموهم وفي الوقت نفسه جاء لأبي الحسن الخبر بأن ابنه أبا عنان ثار عليه في مراكش فعاد سريعا إلى عاصمته سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) وعادت تونس للحفصيين وتولى زمام الحكم الفضل بن أبي بكر الحفصي، ودبر له الحاجب القديم الشرير ابن تافر اجيِّن مؤامرة قتل فيها وتولى أخوه أبو اسحاق إبراهيم سنة (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) واتخذ ابن تافر اجيِّن حاجباً له واضطربت عليه الأمور حيث أعلن أبو عنان المَريني الحرب على تونس فحاصرها برا وبحرا ولم يستطع الحفصيون الصمود والمواجهة أمام الجيوش المرينية التي دخلت تونس للمرة الثانية في شهر رمضان سنة (٧٥٨ هـ/آب (أغسطس) ١٣٥٧م) ولتحديات حفصية ومغربية قرر أبو عنان الرجوع إلى مراكش ولم يبقَ في تونس بعدها سوى

سبعون يوما لم يحرز فيها أي تقدم، وتوفي ابن نافر اجيَن سنة (٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م) ولم يلبث أن توفي أبو اسحاق إبراهيم سنة (٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) وبويع السلطان أبو البقاء خالد ابن أبي اسحاق الذي كان لا يزال طفلاً في الثانية عشرة من عمره، واشتد الخلاف والتنافس بين أبي العباس أحمد أمير قسنطينة وبين أبي عبد الله محمد أمير بجاية الذي استخدم الكاتب والمؤرخ الشهير عبد الرحمن بن خلدون في جمع الأموال من العرب والبربر لتقوية صفوفه ضد منافسه إلا أن أبو العباس أحمد استطاع أن يتفوق على خصمه ويدخل بجاية وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الحادثة قائلاً (وجاءني الخبر بذلك وأنا مقيمُ بقصبة السلطان وقصوره وطلب مني جماعة من أهل البلد القيام بالأمر والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان فتفاديت ذلك وخرجت إلى السلطان أبو العباس فاكرمني وامكنته من بلده وأجرى أحوالي كلها على معهودها) وعندما اتجه أبو العباس أحمد نحو تونس تلقته وفود افريقيا جميعا بالطاعة وسار حتى وصل وضرب عليها الحصار فسرعان ما استسلم المحاصرون وقبض على السلطان الصغير أبو البقاء خالد بن أبي اسحاق ودخل تونس في الثامن عشر من ربيع الأول سنة (٧٧٢هـ/ ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٣٧٠م) وبذلك أصبحت البلاد الحفصية موحدة بعد أن عاشت فترة من التشتت والانقسام، ويُعَدّ أبو العباس أحمد الحفصي من خيرة الأمراء الحفصيين قمع الأعراب وأهل الفساد واسترجع ما ضاع من الإمارة في

أثناء الفتن مثل المهدية وسوسة وقابس وشط الجَرِيد وجزيرة جِربّة وساد الأمن والعدل وازدهرت البلاد.

وفي أيامه غَزى الجَنَوِيون والفرنسيون المهدية في ثمانين قطعة بحرية سنة (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) حيث دافع الناس بقيادة أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان عن المهدية وبعد معارك عديدة ردت جيوش الغزاة على أعقابها خاسئة خاسرة.

وتوفي أبو العباس أحمد في الثالث من شعبان سنة (٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز في زمام الإمارة الذي سار بها نحو الاستقرار ونشر في ربوعها الإزدهار والتقدم فكانت أعماله عنواناً لقوة الإمارة وقدرتها وقد عمل في البداية على توطيد الأمن والقضاء على الاضطرابات والفتن الداخلية وقد وصف الزركشي أحوال الإمارة في زمنه فقال ﴿فاستقامت الأمور بتونس في أيامه كلها أحسن استقامة وأحدث في أيامه بتونس حسنات دائمة﴾ ومن حسناته أنه عندما تحرك في الخامس والعشرين من شعبان سنة (٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م) وحاصر قسنطينة أمر بالمحافظة على الأشجار والمدينة من الخراب والدمار أي الحفاظ على الزرع والضرع قال الزركشي (وفعل السلطان ما لا يفعله محاصر من حفظ الجنات والزرع ورفع المضرات عن جميع جهات البلد) وكان لهذا الأسلوب أثره في نفوس المحاصرين، ومن مآثره أيضا عندما أصبح على مقربة من فاس عزم بالفعل على ملاقاة المرينيين وأخذ يَعُدّ العدة لذلك وما أن علم أمير فاس بذلك حتى أرسل له وفدا يحمل الهدايا ويعلن

الطاعة والامتثال لأوامر السلطان، وذكر الزركشي أن أمير فاس وجه إلى السلطان أبو فارس جواباً قال فيه (أن البلاد بلادكم والسلطنة سلطنتكم وجميع ما تأمرون به نمتثله) وقد اكتفى السلطان أبو فارس بذلك وهذا هو (العفو عند المقدرة) ونصحه أن يحكم بالعدل الذي لا تستقيم حياة الرعية بدونه، وفي سنة (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م) احتل ملك أرغونة الفونسو الخامس جزيرة جِرْبَة وأنجدها ولاذ المحتلون بالفَرار بإتجاه البحر، وفي مجابهة هذه التحديات البحرية أنشأ طائفة من القِلاع والمَحارس لحماية السواحل والثغور، وفي مواجهة المرض بنى مارستانا (مستشفى) للمرضى والعجزة، ومن مآثره الجليلة تشييده مكتبة لطلبة العلم في أحد أروقة جامع الزيتونة إلى الشمال منه وجمع لها آلافا من المجلدات وَقَفَها عليها، كما نحى عن كاهل الناس كثيرا من الضرائب الفادحة، وبسط العدل والأمن والأمان في أرجاء البلاد، وأنشأ لنفسه قصرا بضاحية (باردو) بتونس وأحاطه بحديقة بديعة غناء، وقد شيد فيه الحفصيون اللاحقون والعثمانيون قصوراً وحدائق أنيقة، وتوفي سنة (٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م) وتولى بعده حفيده محمد المنتصر الذي أنشأ مدرسة سميت بالمدرسة المنتصرية، وبنى زاوية الشيخ الصالح أحمد بن عروس، وتوفي بعد عام وشهرين في سنة (٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م) وخلفه أخوه أبو عمرو عثمان الذي بويع من الخاصة والعامة في الثاني عشر من صفر من السنة نفسها وعمره يومئذ سبعة عشر عاما وأربعة أشهر وخمسة وعشرين

يوما، وظل العدل والأمن والاستقرار الرعية طوال حكمه الذي امتد إلى نحو أربعة وخمسين عاما.

كما أن من مآثره وأعماله الجليلة بناء المدارس والمساجد والزوايا والمرافق العامة التي انتفع بها الناس عموما، وقد قمع حركة أو تمرد لعمه أبي الحسن في قسنطينة وبجاية، وتمردت عليه تلمسان وأعادها إلى طاعته.

وكان أخوه المنتصر قد توفي ولم يكمل مدرسته المنتصرية فأكملها وشيد لنفسه مدرسة كبيرة جعل فيها مسجدا للصلاة وغرف للدراسة ومساكن للطلبة وسماطاً يمتد كل يوم للفقراء، ووقف عليها ما يكفيها ويكفي من بها من العلماء والطلبة، وبنى ثلاث مكاتب لقراءة القرآن وعنى بإنشاء مكتبة عمومية في أحد أروقة جامع الزيتونة وأتمها بعده حفيده أبو عبد الله محمد ونسبت إليه فسميت العبدلية، ومن حسناته كتابة القرآن الكريم بخط يده في عدة أسفار جعله بجانب نسخة البخاري التي وقفها أبوه في جامع الزيتونة، وتوفي في شهر رمضان من سنة (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م) وكان حقاً كما قال عنه ابن دينار في المؤنس "هو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة في البلاد الإفريقية" وخلفه حفيده أبو زكريا لمدة ست سنوات من سنة (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م) ولغاية (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م) وولي بعده أخوه أبو عبد الله محمد سنة (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م) الذي أتم المكتبة العمومية التي ابتدائها جده أبو عمرو عثمان وقد وصفه ابن أبي دينار بأنه كان «فطنا ذكياً فصيحا محبا للخير وأهله، وفي أيامه استطاع الأخوانِ (عَرّوج وخَيْر الدين)

ويسميه الفرنج (بَرْبَروُسا) كانا يشتغلان بالقرصنة في البحر المتوسط لحساب الدولة العثمانية على تخليص مدينة الجزائر من الاحتلال الإسباني سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) وجعلها تحت السيطرة العثمانية بعد اقتطاعها من الإمارة الحفصية في حين نجح هذا السلطان باسترجاع طرابلس الغرب من النصارى عندما أرسل إليها القائد محمد أبو حداد فأُسِرَ قبطان النصارى بها ورغم ما بذله هذا السلطان من محاولات لإنقاذ الإمارة الحفصية من النكوص والسقوط إلا أن عصره يُعَدّ بداية لنهاية الإمارة قال ابن أبي دينار: (والسلطان محمد هذا كان ختام بني أبي حفص ومن بعده اسم لا رسم) كما وصف الشيخ اسماعيل التميمي حالة الإمارة قائلاً:(وهنا انقطع الخبر وعمي الأثر وطويت تفاصيل أخبار العلماء لما دَهِم الحضرة في المائة العاشرة من الفتن لتقليص ظل الدولة الحفصية عنها وبلوغها سن الهَرَم فتجاسر عليها الثوار من كل جانب وتناقصت أطرافها وأجلبت الأعراب عليها وأمتدت أيَدي العدو والكفار إليها) ورغم ما عرف عن هذا السلطان من خصال حميدة، فقد وصفه آخرين بسوء التدبير والانغماس في اللذات، عندما أنشأ في أول أيامه منزلاً خاصاً به في المَرْسى للانصراف إلى لذاته ولإشباع رغباته وشهواته، وتوفي أبو عبد الله محمد سنة (٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م) وخلفه ابنه الحسن بن عبد الله محمد سنة (٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م) فرأى (خير الدين بَرْبَرُوسا) أن يزحف إلى تونس من الجزائر ويضمها إلى الدولة العثمانية كما ضم إليها الجزائر من قبل، وزحف إليها فعلا واستولى عليها سنة

(٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م) فلجأ الأمير الحفصي الحسن إلى (كارلوس الخامس ملك اسبانيا) فرآها فرصة كبيرة وقدم معه سنة (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م) ودخل مع الحسن تونس عنوة وفر خير الدين بجنده إلى الجزائر وأذِنَ كارلوس لجنده بنهب تونس فاستباحوا حماها لمدة ثلاثة أيام بالاتفاق مع السلطان الحسن وقد أصطلح على تسمية هذه الحادثة (بخطرة الأربعاء) قال بن أبي دينار ﴿فلما دخل الحسن الحفصي قصبته وأعطى الأمان للناس وقعد كل صانع في صناعته وأهل الربع فتح ربعهم واطمأنوا داهمهم عدو الدين فهجمت النصّارى عليهم على حين غفلة في قائلة والأسواق مفتوحة فأخذوا ما فيها من الأمتعة وقتلوا أهلها وسَبوا خلقاً كثيراً وهذه الواقعة هي المُعَبر عنها بخطرة الأربعاء﴾.

كما أكد ابن أبي ضياف أن السلطان الحسن كان على علم تام بما سيفعله النصارى بأهالي تونس على أن يحقق هدفه الذاتي الأني وهو العودة إلى حكم تونس ولو أدى ذلك إلى تسليم الوطن إلى العدو اللدود وموالاته للأعداء حباً في السلطة والرئاسة، ودخل السلطان القصبة ونادى في لاناس بالأمان وفي باطنه ضده، والدول إذا حان انقراض أوانها وأشرفت على ما قدر من أجل سلطانها تهاونت بأمانها وجعلت وسيلة لغدرها وطغيانها، ولا إيمان لِمَن لا أمان له، وهو من أكبر الأدلة على الانسلاخ من الخلال الحميدة المؤذن بانقارض العِزَة والسلطان. وقد استغل الاسبان ضعف السلطان وفرضوا عليه معاهدة مجحفة

وشروطاً مهينة وخيالية وهذا هو دَيْدَن المختلين الغُزاة مع الدول المَغْزُوَة ومن هذه الشروط المفروضة المهينة:

* إخلاء سبيل الأرِقاء المسيحيين.

* الإباحة لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس، وإقامة دينهم بدون معارضة.

* أن يتنازل الحسن الحفصي لملك اسبانيا عن مدائن – بونا (عِنابة) وبنزرت وحلق الوادي.

* أن يدفع الحسن الحفصي لملك اسبانيا مبلغ اثني عشر ألف مصاريف حرب.

* أن يقدم الحسن الحفصي لملك إسبانيا سنويا اثني عشر ألف من الخُيُول العربية ومثلها من المهار العربية علامة على إمتِنانه.

* بشرط لو خالف أحد هذه الشروط:

- يدفع أول مرة خمسين ألف دوكاً ذهبياً.
- وفي الثانية مائة ألف دوكاً.
- وفي الثالثة يسقط حقه في المُلك.

وأجلس الحسن على عرشها وأشرك معه في الحكم أحد القواد الإسبان، وعندما خرج السلطان الحسن بعودة القيروان إلى حكمه مستعينا في ذلك بالإسبان، نجح ابنه أبو إلياس أحد حكام بونة في الدخول إلى تونس سنة (٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) ونادى بنفسه سلطاناً عوضا عن أبيه، وما أن علم الحسن

بذلك حتى قرر العودة بصحبة جيوش من المرتزقة الإسبان بقيادة القرصان (لوفريدو) وقد استبسل أهالي تونس في ميدان المعركة والتفوا بالسلطان أحمد لمقاتلة الإسبان وأبلوا في ذلك بلاء حسناً ونتيجة لذلك كتب لهم النصر على الإسبان رغم قلة جيوشهم بالعَدَد والعُدة بالمقارنة إلى جيوش الإسبان ولعل ما جعلهم مخلصون في القتال والدفاع عن تونس هو أنهم كانوا يخشون أن يقع لهم ما وقع في خطرة الأربعاء إذا ما دخل الإسبان بلادهم وَ (المُؤمِنُ لا يُلْدَغُ من جُحْرٍ مَرّتين) ومن ناحية أخرى فإنّ السلطان أحمد كان يُنادي فيهم ويحرضهم على القتال بأن من أتى بأسير أو رأس قتيل له مائة دينار، وقد وصف ابن أبي دينار هذه الحادثة بقوله: (والتقى الجمعان وأشتد القتال ساعة من النهار فأنزل الله النصر على المسلمين وصدقوا في قتالهم لأعداء الدين فانهزم حزب الشيطان وكان حقاً علينا نصر المؤمنين، وكان السلطان في ذلك اليوم يعطي كل من أتاه برأس من الكفرة مائة دينار، وكثرت الرؤوس حتى صار يعطي العشرة دنانير أقل وأقل إلى أن أعطى ديناراً وكان النصر لأهل تونس، والقوا القبض على الحسن السلطان السابق وسملوا عينيه ففقد بصره وفر إلى القيروان واستولى الإسبان على المهدية والمنستير وجزيرة جربة والقيروان وكان أهل طرابلس الغرب قد استغاثوا بالدولة العثمانية فازاحت عنهم فرسان مالطا سنة (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م) بِوَساطة أسطول (درغوت) الذي كان مرابطاً أمام الجزائر، وقد استطاع أن يَفتُكَ المهدية والقيروان وجربة والمنستير من أيدي الإسبان وأقام بكل منها

حامية عثمانية ونائبا لذا لم تنجح محاولات السلطان أبو العباس أحمد في صد الحملة التركية التي جاء بهاعلي باشا للاستيلاء على تونس فانهزم السلطان بعد عدة معارك ورجع إلى القصبة وخرج بأهله وأمواله ومن تبعه من رجاله، وهنا اضطر السلطان للاستعانة بالأجنبي الغاشم وهم الإسبان النصارى لطرد الأتراك المسلمين واستعادة ملكه، وانتهز الإسبان هذه الفرصة وزودوا السلطان أحمد بأسطول كبير بقيادة دون خوان واتجهوا نحو تونس وقبل النزول في حلق الوادي أخرج القائد الإسباني كتاباً رسمياً من الدولة الإسبانية يتضمن شروطاً بهذه المساعدة وعلى السلطان أحمد قبولها إذ ما أراد أراأراد العودة إلى حكم تونس، ويقضي هذا الكتاب حصول اسبانيا على نصف ممتلكات الدولة الحفصية إلا أن السلطان أحمد رفض هذه الشروط وأثر الإنسحاب والتخلي عن كرسي الحكم وترك الحكم لأخيه محمد سنة (٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م) وغادر السلطان أحمد إلى جزيرة صقلية وسكن (مدينة بلرمو) وبقي فيها إلى وفاته، ودخل الإسبان تونس ومعهم الأمير محمد بن الحسن وعندها خشي الناس أن تتكرر خطرة الأربعاء فهربوا واختفوا في الدواميس، وهذه الواقعة يعبر عنها بخطرة الدواميس، ونال الناس الجوع والحرمان والعذاب وما تقشعر منه الجلود، وعبثت أيدي الإسبان بمسجد الزيتونة ومحتوياته فالقوا بالكتب والدواوين في الشوارع وداسوها بأرجلهم، واشركوا بالحكم الكونت (سِربَلوني) بل سكن مع السلطان محمد في القصبة وكانا يجلسان معا في سقيفتها للحكم، وقسمت المدينة قسمين كفر وإيمان،

واستمرت هذه الأحوال السيئة نحو عشرة أشهر وعاش أهل تونس بين نارين نار الإسبان ونار الأتراك العثمانيين الذين جاءوا بقوة كبيرة بقيادة الوزير سنان باشا وتم للأتراك الاستيلاء على كافة تونس في الخامس من جمادي سنة (٩٨١هـ/ ١٥٧٣م) وقبض على الأمير الحفصي محمد بن الحسن وأخُذ إلى (الأستانة) القسطنطينية حيث اعتقل حتى وفاته، وبذلك انتهت وانقرضت الإمارة الحفصية ودخلت تونس وبقية البلدان في تبيعة الدولة العثمانية بعد عمر استمر حوالي ثلاثمائة وخمسون عاماً.

٢- الحياة الفكرية والثقافية:

عندما نتحدث عن الحياة الفكرية والثقافية في الإمارة الحفصية يفترض أن نلحض أن هذه الإمارة ورثت قسطا مهما من العلم والعلماء عن الإمارة الموحدية المنهارة يضاف إلى ما امتازت به المدن الحفصية من موقع ساعدها على استقبال كثير من علماء المغرب والأندلس فكانت تونس وبجُايَة من المراكز الثقافية والفكرية حيث استقبلت كثيراً من المفكرين والعلماء الذين هاجروا إليهما من الأندلس كذلك فإنهما كانتا محطتين مناسبتين للحجاج، ولأولئك المسافرين إلى بغداد لطلب العلم والمعرفة، أو لغرض التجارة، وكان لهؤلاء العلماء والمفكرين الأثر البالغ في ازدهار الفكر والثقافة في افريقيا (تونس) من خلال المؤسسات العلمية والفكرية المتمثلة في:

* المساجد
* الكُتّاب
* الزَوايا
* المدارس

التي كان يقام بها مجالس العلم والمعرفة وأداء دروس الوعظ والثقافة والفكر بل أن قصور بعض السلاطين كانت كثيرا ما تستخدم لعقد الجلسات العلمية والثقافية خاصة وأن بعض الأمراء الحفصيين كانوا أنفسهم من العلماء ويوقرون العلماء ويحترمونهم وكانت هذه المؤسسات تعج بالمتعلمين والدارسين على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم، ومما شجع على ذلك هو أن التعليم كان مشاعا لكافة الناس، وقد أطلق على المؤسسة التعليمية الأولى اسم الكُتّاب وقد تكون خاصة أو مدعومة ماديا من قبل الأوقاف، وكان المؤدب يعلم الأطفال القراءة والكتابة بالمسجد ثم ينتقل القارئ بعدها إلى الزاوية لمواصلة دراسته المتقدمة، وقد اهتم السلطان أبو حفص عمر ابن أبي زكريا يحيى بتأسيس أول مدرسة سنة (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م) وأسماها (مدرسة المعرض) أقيم على انقاضها (حالياً) المدرسة الخلدونية بتونس – وخصص لها المدرسين الأجلاء وأعطى لهم رزقا كثيرا قدره عشرة دنانير في الشهر، وأول مدرس عين لها هو الشريف أبو العباس أحمد الغرناطي (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) بالإضافة إلى ما تمنحه المدرسة من شهادات لخريجيها فإنه كان يمكن للشيخ أن يمنح تلميذه (رخصة خاصة) أو

(عامة) تعرف بإسم (الإجازة) من حيث طرق التدريس المتبعة في هذه المؤسسات التعليمية فقد أضاف المدرسون إلى الطريقة التقليدية المتمثلة في السرد والنقل الشفاهي طريقة جديدة وهي (الإلقاء) الذي يصحبه مناقشة الموضوعات وإثارة بعض الأسئلة في آن واحد لذلك كان ابن عرفة (ت ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) ينادي بضرورة تغيير الأساليب القديمة في التعليم والبحث عن الجديد، أما من حيث العلوم والمعارف التي كانت تدرس في هذه المؤسسات التعليمية فقد غلب عليها عدم التخصص الدقيق حيث كانت أغلب المؤسسات تدرس مختلف العلوم والمعارف رغم أن التركيز كان على العلوم الدينية، فقد أشار ابن خلدون إلى أن المدارس الإفريقية (التونسية) كانت تخلط في برامجها التعليمية القرآن الكريم بالحديث النبوي الشريف مع العلوم المختلفة.

وقد أُحتوت هذه المؤسسات التعليمية على مكتبات ضخمة كانت عاملاً مساعداً على النهوض بالمستوى الثقافي والعلمي ليس في المدن الرئيسية فحسب بل أيضا في مدن الدواخل والمناطق النائية بالإضافة إلى المكتبات الخاصة التي كان يمتلكها بعض الأفراد وهناك مكتبات ملحقة بالزّوايا والمساجد والمدارس، ومن المكتبات النائية ذكر التّجاني أبو عبد الله محمد (ت ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) في رحلته زاوية أولاد سهيل الموجودة في صرمان بالبلاد الطرابلسية، كما اشتهرت قصور بعض الأمراء بالمكتبات الكبيرة التي احتوت على عدد كثير من الكتب والمخطوطات، فقد ضمت المكتبة بالقصبة التي أسسها السلطان أبو زكريا يحيى

سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) أكثر من ثلاثين ألف مجلد، كما أسس السلطان أبو فارس عبد العزيز مكتبة بيت الكتب بجامع الزيتونة سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) ووضع فيها كل ما لديه من الكتب والوثائق، وفي منتصف (ق ٩ هـ - ١٥م) بنى السلطان أبو عمرو عثمان خزانة الكتب بجامع الزيتونة أيضاً، وكانت آخر هذه المكتبات السلطانية التي أسسها السلطان أبو عبد الله محمد الحفصي سنة (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م) بالجامع نفسه بتونس، وقد حملت اسمه (المكتبة العبدلية) (وهي مازالت باقية إلى اليوم) وقد احتوت هذه المكتبات مجلدات ومخطوطات في شتى العلوم وخاصة الدينية منها، لقد نشطت حركة التأليف والتدوين وقد أبدع الكتاب والمفكرين فألفوا الكتب العديدة التي أسهمت بدورها في التقدم الفكري والإزدهار الثقافي في ربوع تلك الإمارة ففي مجال الدراسات الدينية ظهرت كتب عديدة في التفسير والحديث والفقه، وفي ميدان التراجم ظهرت مصنفات مهمة ذكر أبرز الشخصيات والعلماء في عصر معين، وفي سجل الرواية التاريخية وتدوين الأخبار برز عدد غير قليل من المؤرخين الذين وثقوا تاريخ الإمارة الحفصية منذ نشأتها حتى أواخر وجودها.

إلى جانب ذلك انتجت الإمارة الحفصية نِتاجاً طيباً في مجال الأدب والفنون فظهر الأدباء والشعراء والفنانون الذين ساهموا في إغناء وإثراء ذلك الموروث الثقافي، وحسبنا هنا ذكر بعض المؤلفات والمصنفات التي ألفها علماء وأعلام الإمارة الحفصية في تلك الحقبة، ففي مجال الشروح والكتب المذهبية والفتاوي

نجد كتاب الإكمال في شرح صحيح مسلم تأليف محمد بن خليفة الوشتاني الأبي (ت ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م) وفي الفقة أدت الاختلافات بين الفقهاء إلى وضع عدة كتب تؤكد على فتاوى دون أخرى في مسائل معينة ففي وضع الذميين في الإسلام ظهرت دراسة لإبراهيم بن عبد الرفيع (ت ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م) وهي معين القضاة ومفيد الحكام وكتاب الإعلان بأحكام البنيان لابن الرامي (ت ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م) وفي مجال العقائد ألف ابن راشد القفصي (ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) كتابان هما (الفائض في معرفة الأحكام والوثائق) و (المذهب في ضبط مسائل المذاهب) اللذان لخصهما في ما بعد في مؤلف يحمل اسم (لُبَاب اللُباب) كما وضع ابن عرفة أبو محمد عبد الله الورغمي (ت ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) عدة مؤلفات منها الحدود الذي تناوله قاضي الجماعة بتونس محمد الرصاع (٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م) بالشرح والتوضيح، وفي ميدان التراجم ظهرت عدة مصنفات منها كتاب عنوان الدراية لأحمد الغبريني (ت ٧١٤هـ/ ١٣١٤م) الذي تضمن تراجم لمشاهير علماء (ق ٧ هـ/ ١٣م) في مدينة بِجَايَة، وكتاب معالم الإيمان لابن ناجي الذي ظهر في أوائل القرن التاسع الهجري / ١٥م، حيث تضمن أسماء علماء القيروان. أما كتاب ابن الأبّار، محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م) وإن كان بلنسيا اندلسيا، إلا أنه يعد تونسياً بالإقامة والعَطاء والوَفاة، وهو (تكملة الصلة) فقد استكمل به كتاب ابن

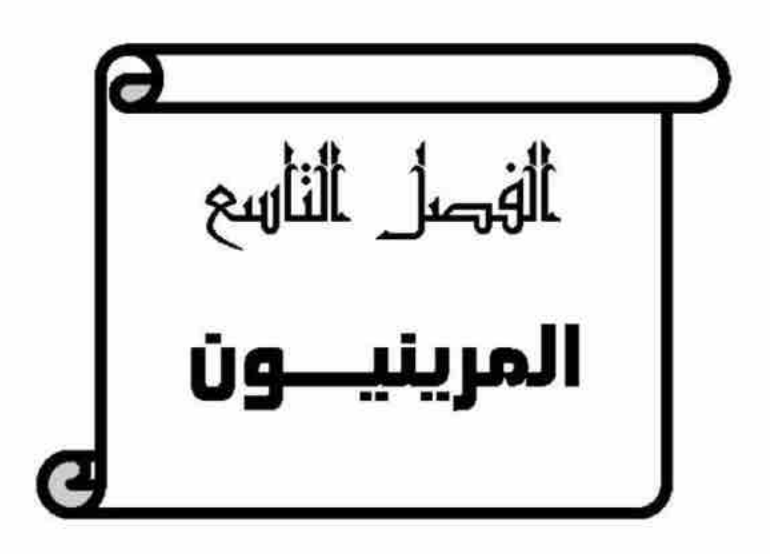
بَشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٥٨هـ/ ١٢٦٢م) الشهير بالصلة وقد ترجم ابن الأبّار كذلك لعلماء ومشاهير الأندلس.

وفي مجال الرواية التاريخية ظهر عدد غير قليل من المؤرخين والكتاب الذين اهتموا برواية الأخبار وتدوين الأحداث وبفضل هؤلاء المؤرخين وما دونوه من أخبار وروايات استطاع اللاحقون أن يتعرفوا على أحداث ووقائع هذه المنطقة في تلك العصور ومنذ الفترة الأولى لنشأة الإمارة الحفصية عمل أمرائها على استقطاب الأخباريين والكُتاب وتشجيعهم على تدوين أحداث وإنجازات الإمارة ومن ثم ظهر في تلك الفترة ما يسمى بالتاريخ الرسمي وفي أيام السلطان أبو زكريا يحيى (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) ألف الكاتب الأندلسي البياسي أبو الحجاج يوسف بن محمد الأنصاري (ت ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م) كتاباً في التاريخ الإسلامي أهداه إلى السلطان.

كما ألف ابن نُخَيْل محمد بن إبراهيم (ت ٦١٨هـ/ ١٢٢١م) الكاتب الأول للإمارة الحفصية كتاباً بعنوان (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية) أما التنوخي عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) فقد ألف كتاباً في التاريخ رتب مادته بحسب المنهج الحولي في ستة أجزاء كما أضاف ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) إلى هذه الكتب كتابه المعروف (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم مِن ذوي السلطان الأكبر) الذي ضم روايات وأخبار عن هذه الإمارة.

وفي إطار هذه الكتابات التاريخية الرسمية ظهرت أيضاً ثلاث مؤلفات – تضمنت وصفاً لأخبار وأحداث الإمارة الحفصية – في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الملاديين: المؤلف الأول كان بعنوان (الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية) للكاتب بن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسن القسنطيني (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) الذي أهداه إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز وقد اشتمل الكتاب على أحداث تاريخية حول بداية ونشأة الإمارة الحفصية حتى سنة (٨٠٦هـ/١٤٠٣م) والمؤلف الثاني كان بعنوان (الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية) لابن الشماع، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) والمؤلف الثالث بعنوان (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية) للزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (ت بعد ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) الذي تضمن روايات وأخبار عن الدولتين الموحدية والحفصية.

فبالإضافة إلى هذا الإزدهار الفكري في مجال تدوين الأخبار والأحداث التاريخية يفترض أن لا نهمل ذكر كتب الرحلات الجغرافية التي قام بها بعض المفكرين الحفصيين ومن هنا الإشارة إلى رحلة التجاني التي قام بها عبد الله بن محمد (ت ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) في (ق ٨ هـ/ ١٤م) والتي تضمنت معلومات جغرافية مهمة في المسالك والممالك وما حوته من أخبار تاريخية وبشكل عام فإن تلك المؤسسات الثقافية والفكرية وما اشتملت عليه من مكتبات مضافاً إليها جهود أولئك العلماء والمفكرين قد ساعد بدرجة كبيرة في النهوض بالمستوى الفكري والثقافي في الإمارة الحفصية.



الفصل التاسع

المرينيـــون

الفصل التاسع
المرينيـــون

* الإمارة المَرينيـة:(٦٦٨ - ٩٦١هـ/ ١٢٦٩-١٥٥٣م)

لم تكد تمضي على وفاة يعقوب المنصور الموحدي سنوات قليلة حتى شرعت قبيلة بربرية زناتية شجاعة هي (قبيلة بني مَرين) تطفح على ساحة الأحداث في المَغْرِبَيْن الأوسط والأقصى، فلقد قامت إمارة بني مَرين منذ أن تمكن السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من دخول مراكش حاضرة الموحدين في واحد محرم سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) ويتصل نسب أبي يوسف بمرين بن وَرْتاجِن بن ماخوخ الزَناتي وكان مركزه بأرض الزاب من جبل يقال له إيكجان في المغرب الأوسط وقد دفعهم العرب الهلاليون غربا فأستقروا في حوض نهر مُلُويَّة حتى منابعه وحوض نهر زِير شمالي سَجِلْماسة وكانوا موالين للموحدين وأسهمت هذه القبيلة بقيادة أميرها أبو خالد محيو بن أبي بكر بموقعة الأرَك في الأندلس سنة (٥٩١هـ/ ١١٩٤م) التي انتصر فيها العرب المسلمون على الفرنج، وقدمه يعقوب المنصور الموحدي على جميع المتطوعين من زنانة للاشتراك في المعركة وإصابته في الموقعة جراحاً توفي منها شهيدا، وخلفه على الإمارة في قومه المرينيين ابنه عبد الحق بن محيو وكان يطمح أن تصبح لقبيلته

إمارة مثل إمارة لمتونة الصنهاجية - إمارة المرابطين، وإمارة هرغة المصمودية - إمارة الموحدين، وثار بجموعة لأيام المنتصر الموحدي في وادي تازة، وشرقي وادي سبو وواقع الموحدين سنة (٦١٣هـ/ ١٢١٦م) وهزمهم، وتوفي سنة (٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان بن عبد الحق وأخضع بني رياح الهلالية وتوفي سنة (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) وخلفه أخوه أبو معروف محمد بن عبد الحق ونازله الموحدون في مكناسة فهزمهم وتوفي محمد سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) وخلفه أخوه أبو بكر بن عبد الحق وهو المحقق لآمال وأماني بني مرين في تأسيس إمارة لهم في المغرب الأقصى فأستولى على مكناسة أول قاعدة ملكها بنو مرين وقصد مدينة فاس فبايعه أهلها طواعيه راضين وعادوا فنقضوا بيعتهم وتحداه يَغْمْراسَن أمير بني عبد الواد وألتقيا وأنتصر بني مرين وعاد أبو بكر سريعا إلى فاس فطلب أهلها منه الأمان وأعطوه العهد وقبل منهم وصفح عنهم، واتجه إلى سَلا ونازل جيشا للموحدين وهزمه واستولى عليها ونازل جيشاً لبني عبد الواد في طريقه إلى درعة وهزمه ودخل أهل درعة في طاعته وعاد إلى عاصمته فاس وتوفي سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٠٩م) الذي يعده البعض المؤسس الحقيقي لإمارة المرينيين في المغرب الأقصى، وخلفه أخوه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق وكان مجاهداً كبيراً يرى فرضا عليه أن يجاهد الفرنج الإسبان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وبدأ جهاده لهم على رأس قوة مرينية سنة (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) عبرت الأندلس. وفي سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) افتتح مدينة مراكش عاصمة الموحدين

وبذلك قضى نهائيا على إمارتهم وبسطت الإمارة المرينية سلطانها على المغرب الأقصى جنوبيه وشماليه حتى سبته وطنجه وابتهج الفقهاء بالإمارة الجديدة بأنها خلصتهم من أجبارهم على مُدارسة المذهب الظاهري ورفضهم لمذهب مالك وسرعان ما عاد إليه المغرب جميعه بعض انقراض عصر الموحدين واستهلال عصر المرينيين وتنادى الفقهاء بأن عقيدة ابن تومرت إنما هي انشقاق على الجماعة وبذلك كان فقهاء المذهب المالكي من العوامل في تثبيت حكم بني مَرْين، وفي سنة (٦٧٠هـ/ ١٢٧١م) كانت بين يعقوب ويَغْمْراسَن سلطان بني عبد الواد واقعة أسْلي قرب وَجْدَة في الشمال انتصر فيها يعقوب وحاصر تِلَمِسْاَن[١] ثلاثة أشهر ثم رفع الحصار وعاد إلى فاس. وفي سنة (٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م) هاجم سَجِلْماسَة واستخدم في حصارها البارود لأول مرة في تاريخ الحروب والمعارك في المغرب الأقصى وأذعنت له، وفي سنة (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) بنى يعقوب بن عبد الحق مدينة فاس الجديدة على مسافة ميل غرب المدينة القديمة إلى الجنوب قليلا ويمر بين سوريهما ذراع من النهر يتجه نحو الشمال وعليه تقع الطواحين، والذراع الثاني للنهر يتفرع فرعين يمر أحدهما بين فاس القديمة وفاس الجديدة ويتابع الفرع الثاني سيره وسط المزارع، وجعلها مقراً لإمارته وسماها يعقوب (المدينة البيضاء) ولكن الناس سموها بفاس الجديدة وجعلها ثلاثة أقسام، قسم فيه قصوره، وقصور أسرته ومعه حدائقه وبنى فيه جامعاً بديعاً، وقسم ثاني به

(١) أو تِلِمْسّان، بسكون اللام وكسر الميم.

قصور قواده وشخصيات إمارته وقسم ثالث خاص بسكنى الحرس مع جوامع وحمامات، وبنى في عُدْوَة القُرويين بفاس مدرسة كبيرة وبنى مارستانا (مستشفى) وزوايا وبني بجوار القصر الملكي دار سَك العملة واختط سوقاً للمدينة ونظمه تنظيماً حسنا وجعل لدكاكين الصاغة أمين يختم (يدمغ) كل ما يصنع من ذهب وفضة بمنقاش وكان أهل فاس عرفوا منذ هذا التاريخ على الأقل نظام ختم المعادن، وتجهز يعقوب في (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م) لعبوره الثاني للزقاق على رأس جيش مريني لجهاد الفرنج في الأندلس وأبلى بَلاء حسناً وعاد إلى فاس، وفي سنة (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) نازل يَغْمُر اسَن في ملعب الخَيْل بأحُواز تلمسان وهزمه وعاد إلى فاس، وأجتاز للمرة الثالثة إلى الأندلس سنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) ليجاهد الفرنج، وفي سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) اجتاز الزقاق للجهاد مع صفوة مستبسلة من بني مرين وأحرز نصراً كبيراً على (نونيو جو نذالث دي لار) جنوبي قُرْطبة في ربيع الآخر سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) وتوفي أبو يوسف يعقوب في (اوبته) في الجزيرة الخضراء بالأندلس إن كل ما سيطر عليه يعقوب من الحصون والبلاد كان يتركه لبنى الأحمر أصحاب غرناطة فهو لم يجاهد لسمعة أو لغنيمة إنما كان يجاهد لنصرة المسلمين ضد أعداء الإسلام (الفرنج) وظل ذلك مبدأ ثابتاً لحكام بني مرين في جهادهم لأولئك الفرنج وتلك منة ليعقوب ومن جاء من بعده.

وخلفه ابنه يوسف بن يعقوب بعهد من أبيه، وسار سيرته في الجهاد، فعبر الزقاق إلى الأندلس مرارا، كما سار سيرته في العدل الذي لا تصلح حياة الأمم والشعوب بدونه.

ونازل يوسف سلطان تلمسان عثمان بن يَغْمْراسَن، وفي سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م) حاصرها وظل محاصرا لها ثماني سنوات وثلاثة أشهر.

وفي سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) أسس يوسف أمام مدينة تلمسان، مدينة المنصورة لمعسكره، وشاد بها قصره، وبنى بجواره جامعا ضخما ومنارة على رأسها تفاحات من ذهب وبنى الناس حول قصره المنازل والقصور، وغرسوا البساتين، وأجروا المياه، وأداروا على المدينة سورا، وبنيت لها حمامات وفنادق، ومارستان (مستشفى) حتى إذا عادت لبني عبد الواد هدموها وخربوها وطمسوا معالمها!؟

وتوفي عثمان بن يغمراسن سنة (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) حِزْنا وكَمَدا، وتوفي ابنه (أبو زيان بن عثمان) مثله كمدا سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م).

ولم يلبث أن توفي يوسف بن يعقوب في السنة نفسها (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م) ففك المرينيون الحصار عن تلمسان.

وخلفه أخوه (أبو يحيى بن يعقوب) وابنه (أبو سالم) وحفيده (أبو ثابت عامر) فقد أرسل (عامر) إلى بَني الواد أن يؤيدوه نظير رد ممالكهم عليهم في المغرب الأوسط فأيدوه، وتم له الأمر، ووفي لهم بالعهد.

وخلفه عثمان بن يعقوب فأغار على تلمسان سنة (٧١٤هـ/ ١٣١٤م) وتوفي عثمان سنة (٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) وسيطر على (ندرومة) وحاصر (وَجْدَة) سنة (٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م).

وخلفه ابنه أبو الحسن علي الذي فكر في السيطرة على تُلِمِسْان، وسيطر على (وَهْران) وتنس ومدينة الجزائر ومَليانة سنة (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) وحاصر تُلِمِسْان.

وأعاد بناء مدينة المنصور لسكناه وسكنى جيوشه لإنجاح حصاره على تلمسان وتضييق الخناق عليها.

وفتح تلمسان عنوة سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) وقضى على إمارة بني عبد الواد الأولى، وأخذ في السيطرة على مدن الجزائر، ودخل بجاية وأذعنت قسنطينة لطاعته، وقدم إلى تونس ومعه حشد من العلماء الأجلاء اجتمعوا له من المغرب الأقصى والمدن التي نزلها في المغرب الأوسط وظل بمدينة تونس من سنة (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) إلى سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م). وفي شهر (محرم سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) هزم أبا الحسن في القيروان هزيمة شديدة، وربما كان من أسبابها تواجد بنو عبد الواد ومغراوة وتوجين في جيشه، وكانوا يحقدون عليه لسلبه إياهم ديارهم، فعملوا على هزيمته وفتح المجال أمام انتصار أهل القيروان. وشاع في المغرب الأقصى خبر بوفاته، فدعا ابنه (أبو عنان) لنفسه بايعه الناس، بعد أن ترك تلمسان ووصل إلى فاس.

وفي شهر شوال من سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) أبحر أبو الحسن في أسطول ضخم إلى الجزائر وتحطم أسطوله بساحل زواوه في الجزائر، ولم يَنْجُ إلا نفرٌ قليل منهم، وغرق من كان معه من العلماء مفخرة المغرب الأقصى والجزائر.

ولم يتنازل ابنه أبو عنان له عن الملك بعد أن تحقق من حياته خشية أن يحرمه من ولاية عهده، وشغل الابن بابيه حتى توفي سنة (٧٥٢هـ/ ١٣٥١م) وتم له الأمر.

زحف أبو عنان إلى تُلِمسْان سنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) وكان يليها الأخوين (عثمان الثاني وأبو ثابت) فسيطر عليها وقتل عثمان الثاني وفر أخوه أبو ثابت إلى (شِلْف) فأرسل وراءه أحد قواده فأستولى على معسكره بكل ما كان فيه، وفر أبو ثابت ثانيا وقتل في فراره، وسيطر أبو عنان على كثير من مدن الجزائر بما فيها بجاية وقسنطينة.

وتوفي أبو عنان سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م) وهو آخر حكام بني مرين الكبار الذين يحسب لهم الحساب.

وبويع لأبنه أبي بكر السعيد وكان طفلا فظل في الحكم سنة واحدة.

وخلفه عمه إبراهيم بن عثمان لمدة سنتين.

وتولى بعده أخوه لمدة سنة، وتولى بعده أمراء ضعاف، واختلت الأحوال، وأزدادت الإمارة اختلالا، وتفاقمت الفتن، ونار الحرب متأججة بين المسلمين

المرينيين وبني عبد الواد، وعدوهم الفرنجي في بلاد الأندلس يَتَرَبَّصُ بهم الدوائر، ولله في خلقِه شؤون!؟

وعند استهلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ولضعف المرينيين، فقد احتل البرتغاليون منهم على سبتة سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) إذ تحولت الحرب المقدسة !؟ كما يزعمون إلى أرض المغرب، كما هي في الأندلس. واحتل البرتغاليون كذلك (آنِفة) [1] سنة (٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، وعلى (طَنْجَة)، ومدينتي (أصيلا والعَرائش) سنة (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م).

وخرجت عن طاعة الإمارة (مراكش) و (منطقة الريف) في الشمال وسجلماسة ودرعة والسوس في الجنوب ..

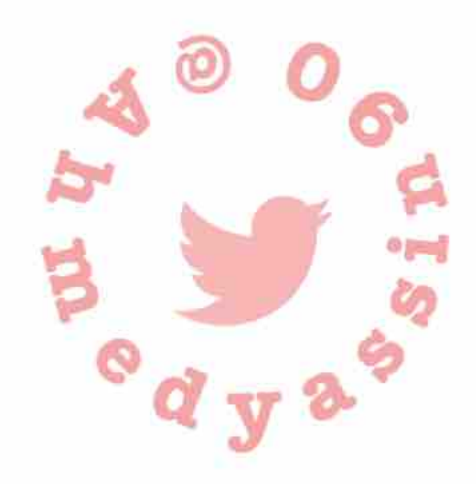
ولابد أن نذكر أنه إذا كانت (الإمارة المرينية) ضعفت وتخاذلت إزاء هذا الاحتلال البرتغالي الواسع لموانئ ومدن المغرب الأقصى على الزقاق والمحيط، فإنه كان هناك من الشباب العربي المسلم دائما من يستبسلون في مقاومتهم وينزلون بهم أفدح الخسائر في الأرواح، من مثل:

أبي الحسن علي المنذري، والشريف الإدريسي علي بن موسى بن الرشيد. ولابد أنه كان لشبان مغاربة أعمال جليلة ومقاومة شديدة، غير أن المؤرخين قلما يثبتونها، أو فُقِدَ ما ثبت منها، بسبب عاديات الزمن، وتناحُر الأهل على امتلاك الوطن.

---

(١) في سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م استولى البرتغاليون على موضع مدينة (آنفة) أو (آنِفى) وشرعوا في بنائها، ومن يومئذ سميت (الدار البيضاء).


الفصل العاشر
الوطاسيون


@Ahmedyassin90

الفصل العاشر
الوطاسيـــون

* الإمارة الوَطَّاسِيّة: (٨٧٦ - ٩٦١هـ / ١٤٧٢م - ١٥٥٣م)

إن (بني وَطّاس) فرع من بني مرين غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق.

ولما دخل بنو مرين المغرب الأقصى واقتسموا أعماله، كان لبني وَطّاس هؤلاء بلاد الريف، فكانت ضواحيها لنزولهم ومدنها ورعايها لجبايتهم، وكان بنو الوزير منهم يسمون إلى الرئاسة، ويرومون الخروج على بني عبد الحق، وقد تكرر ذلك منهم دون جدوى، ثم أذعنوا إلى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة، فاستعملهم بنو عبد الحق في وجوه الولايات والأعمال واستظهروا بهم على أمور إمارتهم، فحسن أثرهم لديها، وتعدد الوزراء منهم فيها.

قال ابن خلدون:

(إن بني الوزير هؤلاء يرون أن نسبهم دخيل في بني مرين، وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني، لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس ووشجت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم، ولم يزل السرور متربعا بين أعينهم لذلك، والرئاسة شامخةٌ بأُنوفِهم ..)

ولما كان أبو عنان المريني قد استولى على بجاية عقد عليها لـ (عمر بن علي الوطاسي) من بني الوزير، فثار عليه أهلها.

ولما كان السلطان (أبو العباس بن أبي سالم) قد خلص ملك (مراكش) وأعمالها إلى ابن عمه (الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن) وكان من جلمة من تحيز إليه وصار في جملته (زيان بن عمر بن علي الوطاسي) فكانت له في إمارته الوَجاهة الكبيرة، والمنزلة الرفيعة، ثم لما فسد ما بين السلطان أبي العباس والأمير عبد الرحمن، كان زيان بن عمر في جملة النازعين إلى السلطان أبي العباس، فاتصل به وصار في جملته إلى أن حاصر السلطان أبو العباس مراكش فَأبْلى بزيان بن عمر في ذلك الحصار، وكان أحد الذين باشروا قتل وَلَدَى الأمير عبد الرحمن.

قال ابن خلدون:

﴿وطالما كان زيان هذا يَمْتَرى ثدى نعمتهم، ويَجُر ذيله خيلاء في جاههم، فذهب مثلا في كُفْران النعمة وسوء الجَزاء، وَ (الله لا يَظلِمُ مِثقَالَ ذَرَّةٍ)[1].

ثم جاء بعده ابنه أبو زكريا يحيى بن زيان، فولي الوزارة للسلطان عبد الحق.

ثم بعده ابنه يحيى أيضا، وهو الذي قتله السلطان عبد الحق في جماعة من عشيرته، وفر أخوه (أبو عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكريا) ومحمد الحلو. وأن

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ آية ٤٠ سورة النساء ٤.

الشيخ كان قد خرج إلى الصيد فاتصل به الخبر فذهب على وجهه لا يلوى على شيء، وأن الحلو اختفى حتى إذا سكنت الحال تسلل ولَحِقَ بالشيخ فسار إلى الصحراء حتى ملكا (أصيلا). وذلك قبل احتلال البرتغال لها. وسيطر على فاس بعد مقتل عبد الحق ومبايعة (أبو عبد الله الحفيد) حيث حاصرها. ودخلت في طاعته في رمضان سنة (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م).

وفي هذه الأثناء اختلط بعض شرفاء العلم من بني راشد مدينة (شَفْشَاون) في غمارة بقصد تحصين المسلمين من فرنج سبتة بعد احتلالها من البرتغاليين.

وكان ابتداء اختطاطها في حدود سنة (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) في الجهة المعروفة بالعُدْوَة، وهي (عدوة وادي شَفْشَاون) على يد الشريف الفقيه (أبي الحسن الحسن بن محمد بن الحسن) المعروف بـ (أبي جمعة العلمي) الذي توفي شهيدا قبل إتمام ما شرع فيه، وذلك بتدبير من الفرنج مع أهل النفاق، إذ أضرموا عليه نارا وهو يتهجد من الليل في المسجد، فتوفي!

وقام مقامه ابن عمه الأمير (أبو الحسن علي بن موسى) فشرع في اختطاط مدينة شَفْشَاون في العُدْوَة الأخرى، فبني قصبتها، وشيدها وأوطنها بأهله وعشيرته. ونزل الناس بها فبنوا وصارت في عداد المدن .. وورثها بنوه من بعده، إلى أن أخرجهم منها (الشرفاء السعديون) عند سيطرتهم على بلاد المغرب.

وفي سنة (٨٩١هـ/١٤٨٦م) استدعى محمد الشيخ الإمام أبا عبد الله بن غازي من مكناسة إلى فاس فولي الخطابة أولاً بالمسجد الجامع من فاس الجدية

ثم ولي الإمامة والخطابة ثانيا بمسجد القرويين من فاس، وصار شيخ الجماعة بها، وأستوطنها إلى أن توفي.

وفي سنة (٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م) تحرك محمد الشيخ إلى دبدو ثم عاد إلى عاصمته.

وفيها أيضاً توفي يوم الخميس السابع من ذي القعدة الوزير أبو عبد الله محمد الحلو الوطاسي، ودفن بالقلة خارج باب الجيسة.

وفي سنة (٨٩٧هـ/ ١٤٩١م) وصلت جموع من مسلمي الأندلس إلى المغرب بعد أن احتلت (ايزابيلا) صاحبة (مدريد) على حمراء غَرْناطة ومحت سلطة بني الأحمر والمسلمين من الأندلس.

وقام هؤلاء العائدين من الأندلس بالنزول في مَرْتيل وطلبوا من محمد الشيخ الوطاسي لِيُسعفهم، وقالوا:

(إن ضيافتنا عندك أن تُعَيِّن لنا موضعا تبنى فيه بلدا يكننا، ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف)

فأجابهم إلى مرادهم، وعين لهم (تطاوين الخِرْبَة) فشرعوا في بناء أسوار البلد القديم، وجددوه، وبنو المسجد الجامع فيه، واستوطنوه.

وأصبحت مدينة (تطاوين) ظاهرة للوجود بارزة المعالم بسواعد الأندلسيين العائدين.

وقدم إلى فاس أبو عبد الله بن الأحمر المخلوع من الأندلس بأهله وأولاده معتذرا عما أسلفه، متلهفا على ما خَلَّفَه، فأستقبله السلطان محمد الشيخ الوَطاسي،

وقد خاطب ابن الأحمر، (الوطاسي) بقصيدة من إنشاء وزيره (أبي عبد الله محمد العربي العقيلي) جاء فيها:

بِكَ استجرنا وَنِعْمَ الجارِ أنتَ لِمَن	جارَ الزمانُ عليه جَوْرُ مُنْتَقِمِ
حتى غَدا مُلكه بالرَغِم مُستَلِباً	وأفظع الخَطْبُ ما يأتي على الرَغمِ
حُكْمُ من الله حَتْمُ لا مَرَدَّ لَـــهُ	وَهَلْ مَرَدُ لِحُكِم منه مُنْحَتِمِ

وهي طويلة، ثم وصلها برسالة يقول فيها بعد الحمد لله والصلاة على نبيه:

(.. أما بعدُ فَيامَوْلانا، الذي أوْلانا من النِعَمِ ما أوْلانا، لا حَطَّ الله لكم من العِزَّةِ أرواقا، ولا أذوى لدَوْحَة دولتكم أغصانا ولا أوراقا، ولا زالت مُخْضَرَة العودِ، مبتسمة عن زَهَراتِ البَشائر متحفةُ بثَمَرات السُّعود، مَمْطورةً بسَحائبِ البَركات المتداركاتِ دون بُروق ولا رعود ..

وماذا الذي يُقول من وَجهة خَجِلٌ، وفؤاده وَجِلٌ، وقضيتهُ المَقْضية عن التنصلِ والاعتذار ئَجِل؟

بَيْدَ أني أقول لكم ما أقوله لربي، واجترائي عليه أكثرُ، واحترامي إليه أكبرُ (اللّهم لا بَريء فأعتذر، ولا قَوي فأنتصر) لكني مستقبل مستعتب مستغفر، ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾[1] هذا على طريق التنازل والاتصاف، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف.

---

(١) آية ٥٣ سورة يوسف ١٢.

وأما على جهة التحقيق، فأقول ما قالته الأم ابنةَ الصديق:

(.. والله إني لا أعلم أني أن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أني منه بريئة لا قول مالم يكن، ولئن انكرت ما تقولون لا تصدقوني).

فأقول ما قاله أبو يوسف:

(فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)

على أني لا أنكر عيوبي..ولا أجحد ذنوبي..إلى الله أشكو عجرى وبجرى، وسقطاتي، وغلطاتي..

غير أن الرُعاع في كل أوان أعداء للملك وعليه أحزاب وأعوان، كان أحمق أو أجهل من أبي ثروان، أو أعقل أو أعلم من أشَجّ بني مروان (رُبّ مُتَهم بَريء)[1]. ومسربل بسربال وهو منه عرى،، وفي الأحاديث صحيح وسقيم، ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم، ولكن ثم ميزان العقل، تعتبر به أوزان النقل، وعلى الراجح الاعتماد ..

وبعد فأسأل أهل الحل والعقد والتمييز والنقد، فعند جُهَيْنَتهم تلقى الخبر يقينا، وقد رضينا بحُكمهم يوثِمُنا فيوبقنا، أو يُبرننا فيقينا ..

فللّه دَرُّ القائل:

(إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر ..)

وجعل يتمثل بقولهم: (إذا عيروا قالوا: مقادير قدرت)

---

(٢) وأهل القانون المعاصرون يقولون: (المتَهم بريء إلى أنْ تُثبتَ إدانته).

وبقولهم: "المَرءُ يعجزه المحال، فيعارض الحقَ بالباطِل، والحالي بالعاطِل".

وينزع بقول القائل: (رُبَّ مسمعٍ هائلٍ وليس تحته طائل)

ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شئنا، مما يسايرنا في غرضنا منه ويماشينا، كقوله صلى الله عليه وسلم: (كل شيء بقَضاءٍ وقدر ...)

وقوله أيضاً:

(لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه).

حينئذ نقول له، وقد ابان وجهه وجلاه وقهره بحجته وعلاه.

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[1].

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾[2].

وبنى ابن الأحمر المخلوع بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، وتوفي بها سنة (٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م) ودفن بإزاء المصلى، خارج باب الشريعة.

وزعم (مَنْويل) أنه هلك في وقعة أبي عُقبة في حرب الوطاسيين مع السعديين وقال: (ولم يحسن هذا الرجل أن يدفع عن مُلكه فدفع عن مُلَك غيره!)

---

(١) آية ١٢٨ سوة آل عمران ٣.

(٢) آية ١٥٤ سورة آل عمران ٣

وفي سنة (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) استولى البرتغاليون على ساحل البريجة فيما بين آزمور وتيط، وبناؤهم (مدينة الجديدة) على بناء برج الشيخ.

وتوفي محمد الشيخ الوطاسي سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م).

وخلفه ابنه (أبو عبد الله محمد البرتغالي) ابن محمد الشيخ الوطاسي، وكان الفرنج في سبتة وطنجة وأصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط، وضايقوا أهلها حتى ألجاؤهم إلى قصر كتامة.

وقد عني محمد البرتغالي بجهاده وترديد الغزو إليهم والإجلاب عليهم، حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها، فكان ذلك سببا لظهور الإمارة السَعْدية بها سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م).

ففي سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) زحف محمد البرتغالي إلى (أصيلا) لمقاتلة البرتغاليين (الذين أسروه سبع سنين) وحاصرها، وطال قتاله عليها، ثم اقتحمها المسلمون عليهم اقتحاما واقتتلوا في وسط الأزقة والأسواق ليومين (في عصرنا ما يُسمى حرب الشوارع وهو أخطر حروب المدن).

وفي السنة نفسها حاول البرتغاليون الاستيلاء على ثغر أزمور فقاومهم زيان الوطاسي ابن عم محمد البرتغالي وطردهم فولوا هاربين مذعورين.

وفي السنة نفسها احتل البرتغاليون مدينة وهران ونكبوا أهلها، - ولم تحرر إلا في سنة (١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م) -.

وفي سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢م) كرر البرتغاليون عدوانهم على أزمور بقوة كبيرة – هذه المرة – تعدادها عشرون ألف من الجنود، وألفان وسبعمائة خيال، وحاصروها بحرا، وزحفوا إليها من (الجديدة) برا، ووقعت معركة حامية الوطيس بينهم وبين أهل أزمور وأهل البادية، ولم يكن النصر حليف المؤمنين. وانهزم الناس من باب تركه لهم البرتغاليين بقصد، وكما يقال في الأمثال:

(الفارُ منكَ في الحَربِ اجعل له قنطرةً من فِضَة يَعبُر عليها).

وفي سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) احتل البرتغاليون ثغر المعمورة بعد قتال شديد بينهم وبين المسلمين بقيادة (الناصر) أخا محمد البرتغالي وهزمهم هزيمة قبيحة، ثم كانت لهم الكرة على المسلمين فهزموه واحتلوا المعمورة، واسترجعها محمد البرتغالي بعد خمس سنين من الاحتلال.

وفي السنة نفسها استولى البرتغاليون على موضع مدينة آنفة فشرعوا في بنائها، ومن يومئذ سميت "الدار البيضاء" ومكثوا فيها مدة طويلة إلى زمن السلطان المولى عبد الله بن اسماعيل.

وفي سنة (٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) نهض محمد البرتغالي إلى مراكش ومحاصرته أبا العباس الأعرج السعدي حيث أن ظهور الإمارة السعدية ببلاد السوس كان في سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م) ومازال أمرهم في الزيادة إلى أن كانت إمارة أبي العباس الأعرج منهم، فاستفحل أمره وبَعُدَ صيته .. فكاتبه أمراء هنتانة أصحاب مراكش ودخلوا في طاعته، فانتقل إليها وملكها في حدود (٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م).

ولما اتصل خبره بالسلطان محمد البرتغالي وهو - يمئذ - بفاس قامت قيامته، وأقبل في جموع عديدة ومعه وزيره أخوه (الناصر) وقيل وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر. ولما رأى أبو العباس السعدي ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة، ودام الحصار عليها أياما، ووردت الأنباء على محمد البرتغالي بأن بني عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته، فأصبح من الغد راحلا إلى فاس، وبذلك فك الحصار عن مراكش.

وكان من جملة وزراء محمد البرتغالي:

أخوه الناصر بن محمد الشيخ المعروف عند عامة فاس بابي علاقة، (وبالكُدَّيْد)، واكتسب هذا اللقب لكثرة سفكه الدماء وأقدامه عليه، فكان يقتل الناس ويجزرهم كثيرا، وكذا بمكناسة أيام وزارته بها.

وتوفي أبو عبد الله محمد البرتغالي سنة (٩٣١هـ/ ١٥٢٤م).

وخلفه أخوه أبو حسون بن محمد الشيخ الوطاسي ويعرف بأبي حسون البادسي، بولاية عهده إليه. ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد بن محمد البرتغالي وخلعه، وأشهد عليه بالخلع آخر ذي الحجة سنة (٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م).

وفي سنة (٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م) كانت وقعة (آنماى) قرب مراكش بين أبي العباس أحمد الوطاسي وأبي العباس أحمد السعدي، فافترقا على اصطلاح.

وفي سنة (٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م) عقد الصلح بين أبي العباس أحمد الوطاسي وأبي العباس أحمد السعدي. وذكر في شرح (زهرة الشماريخ) [1]:

(إن الصلح انبرم بين الطائفتين، على أن للإشراف من تادلا إلى السوس، ولبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط ..).

ولم يطل أمد الصلح الذي انعقد بين الوطاسيين والسعديين، إذ نشبت الحرب بينهما في وقعة أبي عقبة في أواخر سنة (٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) ودامت الحرب أياما إلى أن كانت الهزيمة على الوطاسي عشية يوم الجمعة (ثامن صفر سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م) ومما اشتهر في هذه الواقعة (كرامات) الشيخ أبي طلحة محمد المصباحي الشاوي الزناتي، أنه لما انهزم (أبو العباس أحمد الوطاسي) وتفرقت جموعه وتبعته الخيل فكادوا يقبضون عليه، فحضر هناك رجل على (فرس أنثى) فجعل يحول بينه وبينهم، ويقول له:

(سر يا أحمد ولا تخف!)

ولم يزل معه إلى أن رجعوا عنه وأمن الطلب، وقد عرف السلطان صفته وتحققها، ولم يزل يسأل عن صاحب تلك الصفة حتى قيل له:

هذه صفة أبي طلحة المصباحي، وتحقق ذلك.

---

(١) وهناك كتاب عبد الرحمن بن محمد السيوطي (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) واسمه: ﴿الشماريخ في علم التاريخ﴾ – مط بريل – لندن ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م، ومط المثنى – بغداد ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

ولما كان خروج السلطان الوطاسي الذي وصل فيه (تِطاوين) وتزوج بها الحُرَة بنت الأمير السيد أبي الحسن علي بن موسى بن راشد الشريف، وذلك في ربيع الأول سنة (٩٤٨هـ/ ١٥٤١م) وبتطاوين بَنى بها، وقصد الشيخ أبا طلحة المذكور ونزل عليه، فلما رآه عرفه، وأيقن أنه الرجل الذي أغاثه، فأكَبَّ عليه السلطان وذكر ما وقع له معه!

فقال الشيخ: (يارب كيف العيش مع هذه الشهرة!؟)

وطلب من الله تعالى أن تقبض روحه، فتوفي عقب ذلك من سنته!

وفي سنة (٩٤٨هـ/ ١٥٤١م) عقد أبو العباس الوطاسي مع البرتغاليين المحتلين لمدن (آسفي، والجَديدة، وآزمور) صلحا على ثلاث سنين، ليتفرغ الوطاسي لقتال السعديين (أخوته في الدين)!

وفي منتصف سنة (٩٥١هـ/ ١٥٤٤م) قام أبي العباس الوطاسي ببناء قنطرة الرصيف بفاس، وكانت من المعالم البارزة التي تغنى بها الشعراء وتحدث عنها البلغاء.

وفي شهر رجب من سنة (٩٥٢هـ/ ١٥٤٥م) كانت (واقعة وادي دَرْنَة) بتادلا، وقد أُسِر الأمير (أبي زكريا يحيى بن أبي عبد الله البرتغالي الوطاسي) وهو أخو السلطان أبي العباس الوطاسي، من قبل السعديين، وبعد أيام من أسره توفي أبي زكريا غَمّاً وأسَفاً.

وكان سلطان السعديين - يومئذ - محمد الشيخ الملقب بالمهدي، بعد أن تغلب على أخيه أبي العباس أحمد الأعرج السعدي وأنتزع منه المُلك، وسجنه. وأستولى على مراكش.

وفي سنة (٩٥٥هـ/١٥٤٨م) تحرك محمد الشيخ السعدي للاستيلاء على ممتلكات (الوطاسيين) بعد أن نكث ما كان بينه وبينهم من الصلح، فأستولى على (مِكْناسَة الزَيتون) بعد حصار ومقاتلة، ثم تقدم إلى فاس وحاصرها لمدة سنة فاستولى عليها بعد أن أسر سلطانها أبو العباس الوطاسي وصار في قبضته، وذلك في أوائل سنة (٩٥٦هـ/١٥٤٩م)، وقبض على الوطاسيين وبعث بهم مصفدين إلى مراكش عدا أبا حسون المخلوع وكان قائد جيش ابن أخيه.

وَذُكر أن وفاة أبي العباس الوطاسي بمراكش حوالي سنة (٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م) وقيل: قُتل ذبحاً بمراكش، وبذلك انتهت إمارة الوطاسيين الأولى. أما الإمارة الوطاسية الثانية فتبدأ عندما دخل أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي إلى فاس سنة (٩٥٦هـ/١٥٤٩م). وقبض على بني وطاس بها، وفر أبو حسون إلى ثغرِ الجَزائر، حيث كان الأتراك العثمانيون قد استولوا على المغرب الأوسط وانتزعوه من يد بني زيان فلم يزل أبو حسون عندهم يستعيدهم ويحسن لهم بلاد المغرب الأقصى، ويعظمه في أعينهم، وأملهم بالغنائم والذخائر، ووعدهم بمال جزيل، فأجابوه إلى ما طلب، وهجموا بجيش كثيف بقيادة الباشا صالح التركماني المعروف (صالح رئيس) واقتحموا فاس بعد حروب طاحنة ومعارك عنيفة وفرار

محمد الشيخ السعدي، وكان دخول أبي حسون إلى فاس في ثالث صفر سنة (٩٦١هـ/ ١٥٥٣م) ولما دخلها فرح به أهلها فرحا شديداً وترجل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيرا وصغيرا شريفا ووضيعا ويبكي على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين واستبشر الناس بمقدمة وتيمنوا بطلعته، ثم لم يلبث أبو حسون إلا يسيرا حتى كثرت شكاوي الناس إليه من الأتراك وأنهم مدوا أيديهم إلى إلى الحريم وعاثوا في البلاد، فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير، أما محمد الشيخ السعدي الذي فر من موقعه الأتراك بفاس فقد وصل إلى مراكش وأخذ يعد العدة لقتال أبي حسون وذلك في استنفار القبائل وانتخاب الأبطال وتعبئة العساكر والأجناد فأجتمع له من ذلك ما أشتد به أزره وقوي به عضده ثم نهض بهم إلى فاس فخرج إليه أبو حسون في رماة فاس وما انضاف إليهم من جيش القبائل فكانت الهزيمة على أبي حسون فرجع إلى فاس وتحصن بها فحاصره الشيخ السعدي ووقعت بينهما معركة بالموضع المعروف (مسلمة) فقتله وسيطر على فاس وصفى له أمرها في يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة (٩٦١هـ/ ١٥٥٣م) وبمقتل أبي حسون انقرضت الإمارة الوَطّاسِية في المغرب الأقصى ..


الفصل الحادي عشر
عبد الـواد أو الزيانيـون

الفصل الحادي عشر
عبد الـــواد أو الزيانيـــون

* إمارة عبد الواد (الإمارةِ الزَيّانية في المغرب الأوسط)
(٦٣٣ - ٩٦٢هـ/١٢٣٥ - ١٥٥٤م)

في أقصى غرب المغرب الأوسط (الجزائر) تقع تِلِمِسَان[1] وإقليمها، وكان بها من قديم بنو يَفْرِن الزَنَاتيون مؤسسوها، وقد سيطرت عليها قبيلة مغْراوة سنة (١٧٠هـ/ ٧٨٦م) فيما سيطر عليه الأدارسة منذ سنة (١٧٣هـ/ ٧٨٩م) إلى أن أخذها منهم موسى بن أبي العافية أحد قادة الإمارة العُبَيْدية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وانحسرت عنه إمارتهم أو ثاروا عليها مما جعل صنهاجة بزعامة (بلكين بن زِيري) تهاجمهم سنة (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) ويثأرون لأنفسهم بزعامة (زِيري بن عَطِية) سنة (٣٨٩هـ/ ٩٩٨م) وتهزمهم صنهاجة سنة (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) وتظل زناتة مسيطرة على تلمسان إلى أن يستولي عليها يوسف بن تاشفين أحد كبار إمارة المرابطين بمراكش سنة (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) وتظل تابعة للمرابطين إلى انتهاء إمارتهم وتتبع بعدهم إمارة الموحدين الذين

(١) أو تُلُمِسان، بسكون اللام وكسر الميم.

قربوا منهم بني عبد الواد الزناتيين، وفي سنة (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م) ولوا منهم جابر بن يوسف على تلمسان فأخذ يعمل جاهدا على الاستقلال ببلده عن الموحدين غير أنه توفي سريعا، وخلفه بعض أفراد من أسرته، وصارت سنة (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) غلى يَغْمْراسَن فأعلن استقلاله عن الموحدين ونَصَّبَ نفسه أميراً للمسلمين وسير إليه أبو زكريا الحفصي أمير افريقيا التونسية والجزائر الشرقية جنده فأعلن له الولاء وعاد بجنده، وزحف إليه السعيد الموحدي سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) وانتصر عليه يَغْمْراسَن وتوفي يَغْمْراسَن سنة (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) بعد أن ثبت في تلمسان دعائم الملك لأبنائه، وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان وقد وسع أطراف ملكه في غربي الجزائر جبال ونشريس ومدينة المدية ومدينة تنس وهاجم تلمسان لأيامه سلطان الإمارة المرينية يوسف بن يعقوب خمس مرات هزم في أربع منها وفي الخامسة حاصرها سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م) وظل محاصراً لها ثمانِ سَنوات وثلاثةِ أشهر، وتوفي أبو سعيد عثمان في الحصار كَمَدا سنة (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) وخلفه ابنه أبو زيان بن عثمان وتوفي كَمَدا مثل أبيه سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م). وفي السنة نفسها توفي السلطان المَريني يوسف بن يعقوب وَفَكَ المرينيون الحصار على تلمسان، وكان واليها أبو حمو موسى الأول فأشتغل بتثبيت ملكه وهاجم غربي الجزائر وسيطر على مليانة ومدينة الجزائر وسهل متيجة جنوبيها وكاد يسيطر على بجايَة وقسنطينة واغتيل سنة (٧١٨هـ/ ١٣١٨م).

وخلفه ابنه أبو تاشفين وكان مولعاً بتشييد القصور، ونزل قسنطينة وأفسد الزرع وسيطر على بجاية من الإمارة الحفصية مما جعل سلطانها يطلب العون من بني مرين أصهاره فتشفع له سلطانهم أبو الحسن علي فرد (أبو تاشَفِين) رُسُله إليه أسوأ رد فحاصر تلمسان، وأعاد بناء مدينة المنصورة لسكناه وسكنى جيوشه، وضيق عليها الحصار وشد الخناق ستين حتى دخلها عنوه سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) وقاتل أبو تاشفين وأبنائه دونها وقتلوا جميعا، وبذلك انتهت إمارة بني عبد الواد الأولى لتلمسان بعد أن حكمتها مئة سنة ونيفا.

وأخذ أبو الحسن علي المريني يسيطر على بعض البلدان في غربي الجزائر، وفي سنة (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) عين ابنه أبا عنان على تلمسان وما صار إليه من بلدان الجزائر وزحف شرقا إلى تونس وسيطر عليها من السلطان الحفصي وظل بها ما يقرب من ستين (٧٤٨ – ٧٥٠هـ/ ١٣٤٧-١٣٤٩م) وعصته القبائل العربية في تونس والقيروان ونازلته وهزمته وشاع في المغرب الأقصى خبر بوفاته فغادر أبو عنان تلمسان إلى فاس العاصمة ودعاء لنفسه فيها فبارح أبوه تونس سريعا إلى فاس ومع ذلك فلم يتنازل الإبن عن المُلك لأبيه، وفي هذه الأثناء انتهز أميران من الأسرة الزيانية الفرصة هما (أبو سعيد) و (أبو ثابت) واستوليا على تلمسان سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) واشتركا في حكمها حتى إذا كانت سنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) نازلهما السلطان المريني أبو عنان وسيطر منهما على تلمسان ويفر أبو حمو موسى الثاني إلى تونس ويكرمه سلطانها ووزيره ابن تافراكين.

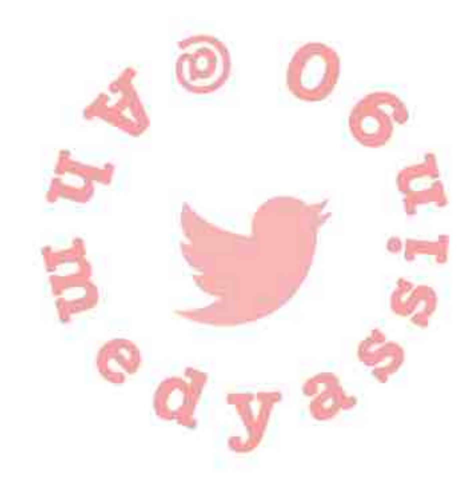
وفي سنة (٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م) جهز أبو حمو جيشاً من تونس والجزائر وفتح تلمسان وأخرج منها المرينيين وأعادها إلى أسرته ولم تَتَسَمَّ الإمارة حينئذ إمارة بني عبد الواد بل تسمت بإسم إمارة بني زَيَّان نسبة إلى أحد الجُدود الأولين وهو أبو يَغْمْراسَن مؤسس الإمارة الأولى، ودبر أبو حمو أمور الإمارة تدبيراً شديداً ونهض بتلمسان نهضة علمية وأدبية وكان شاعراً واتخذ هو ومن جاء بعده لقب (أمير المؤمنين) بدلاً من (أمير المسلمين) مخالفاً المتعارف عليه أو اصطنعوا بها لها نظاماً شَبِيهاً بما كان معمولاً به ببغداد فإنهم اتخذوا مراسم دقيقة إذ قَسموا الإدارة قسمين:

إدارة عسكرية وإدارة مدنية وعلى رأس الأولى القائد، وعلى رأس الثانية الكاتب الأول ومن ورائهما خازن المال أو (الصراف) الذي يأمر بصرفه إلى مناصب ووظائف عديدة.

وتوفي أبو حمو موسى الثاني سنة (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م) وتنازع أبناؤه وتقاتلوا في سبيل الاستيلاء على الحكم، ومن أهمهم أبو زيان الذي استولى على مقاليد الحكم سنة (٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) وكان عالماً وشاعراً، وقتل سنة (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) بيد أخيه أبو محمد عبد الله، وحكم تلمسان حتى سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م) وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد المعروف بـ (ابن خوّلة) إلى سنة (٨١٣هـ/ ١٤١٠م) وبعد ذلك أخذ يكثر في الأسرة القتل والخلع، وتتدخل الإمارة الحفصية بتونس لنصرة الأخ على أخيه أو نصرة هذا على ذلك، وفي سنة (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م) استولى السلطان أبو فارس الحفصي على تلمسان واتسع

حينئذ تدخل الإمارة الحفصية في تولية حكام الإمارة الزيانية، وقد ولي عليها أبو فارس الحفصي أبا مالك عبد الواحد وقتل سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) وتولاها أحمد العاقل بن أبي حمو، ويأتي بعده فيتولاها المتوكل سنة (٨٦٦هـ/ ١٤٦١م) وتمرد عليه (محمد بن غالية) وقضى على تمرده، وتاريخ وفاته غامض!؟

وأخذت إمارة بني زيان بتلمسان وغربي الجزائر تتدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وبالمثل تدهورت الإمارة الحفصية في افريقيا التونسية وطرابلس وشرقي الجزائر، وكان (فرديناند ملك اسبانيا) قد أخرج العرب المسلمين من غَرْناطَة آخر قلعة بالأندلس فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس، فراى بصلف وعنجهية أن يستأنف حربه الصليبية بتعقبهم في تلك السواحل، وأطعمه أنه لم يجد للإمارة الزيانية ولا للإمارة الحفصية أسطولاً يحمي ثغورهما على البحر المتوسط، وأحتل في الساحل الغربي للجزائر على المرسى الكبير إلى الشمال الغربي من وَهْران سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) وعلى وَهْران سنة (٩١٤هـ/ ١٥٠٨م) وعلى مَستَغانم ومدينة الجزائر إلى الشرق من وَهْران، وأحتل في الساحل الشرقي للجزائر التابع للإمارة الحفصية على بِجاية سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) وعلى ثغرَي جيجل وعِنابة وكأنما أصبح الساحل الجزائري غربا وشرقا في قبضته إذ أهمل المرينيون والحفصيون الرِباطات والمحارس الساحلية التي أكثر من إقامتها السلف الصالح لحماية الإنسان والمكان، والزرع والضرع من هجمات قراصنة الغرب وبذلك انقرضت هي الأخرى الإمارة الزّيّانية...


@Ahmedyassin90


ثبت المصادر والمراجع

- الثبت – اعتمد حروف الهجاء (المعجم) لأسماء المؤلفين المشهورين بها.
- عدم الأخذ بالملحقات لأسماء الشهرة (ال التعريف، أبو، ابن).

١- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أحمد الجزري، **الكامل في التاريخ**، مط دار صادر، بيروت، (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م).

٢- البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز، **المسالك والممالك**، مط الدار العربية، تونس (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).

٣- البيذق، أبو بكر بن علي الصنهاجي، **أخبار المهدي**، ط باريس ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م.

٤- ابن تومرت، محمد بن عبد الله المهدي، **أعز ما يطلب**، ط لوسياني، الجزائر ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م.

٥- التنسي، محمد بن عبد الله، **تاريخ بني زيان**، تحقيق د. محمود بو عياد، ط الجزائر (د.ت).

٦- ابن خلدون، يحيى بن محمد، **بغية الرُواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق د. عبد الحميد حاجيات – ط الجزائر (د.ت).

٧- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. مط دار الكتاب، بيروت (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م).

٨- ابن الخطيب، الوزير لسان الدين محمد بن عبد الله، **أعمال الإعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، ط. بيروت (١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م).

٩- ابن أبي دينار، محمد بن أبي القاسم الرُّعَيْنى، **المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس**، المكتبة العتيقة، تونس (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

١٠- الزركشي، محمد بن إبراهيم اللؤلؤي، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، المكتبة العتيقة، تونس ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م

١١- ابن أبي زرع، علي بن محمد الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس = روض القرطاس**. دار الطباعة المدرسية، أبسال (١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م).

١٢- السراج، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الأندلسي الوزير، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، مط دار الغرب - بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م).

١٣- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى، **المغرب في حلى المغرب**. ط القاهرة (١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م).

١٤- ابن شجاع، محمد بن محمد، **الأدلة البينية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر المعموري، ط الدار العربية تونس ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

١٥- ابن أبي الضياف، أحمد، **إتْحاف أَهْلِ الزمانِ بِأَخبار ملوك تونس وعهد الأَمان**. الدار التونسية، تونس (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٧م).

١٦- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد الباجي، **المن بالإمامة**، مط دار الأندلس، بيروت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

١٧- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الأمم والملوك**. مط دار المعارف، القاهرة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م).

١٨- الغبريني، أحمد أبو العباس، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، نشر محمد بن أبي شنب، ط الجزائر (١٣٣٠هـ/ ١٩١١م).

١٩- ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله، **فتوح مصر والمغرب**. ط بغداد (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م).

٢٠- ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**. ط باريس (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م).

٢١- القلقشندي، أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. مط دار الكتب المصرية، القاهرة (١٣٧١هـ/ ١٩٥١م).

٢٢- ابن قنفذ، أحمد بن الحسن، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد بن النيفر وعبد المجيد التركي. الدار التونسية، تونس (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٢٣- مؤلف مجهول ــــــ، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، ط الإسكندرية ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

٢٤- مؤلف مجهول ــــــ، **الحُلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، الناشر علوش، الرباط ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

٢٥- المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. مط الفرجاني، القاهرة (١٣٨٤هـ/ ١٩٨٤م).

٢٦- المراكشي، محمد بن عبد الملك الأنصاري، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**. ط بيروت، الرباط (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م).

٢٧- المقرى، أحمد بن محمد التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**. مط دار العلم. بيروت (١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م).

٢٨- المقريزي، أحمد بن علي، **إتعاظ الحنفا**...مط دار الكتب، القاهرة (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

٢٩- ابن ناجي، أبو القاسم عيسى، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**. ط تونس (١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م).

٣٠- الناصري، أحمد بن خالد السلاوي. **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**. الدار البيضاء، المغرب (١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م).

٣١- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي (ليون الإفريقي)، **وصف إفريقيا**. ط القاهرة (د.ت).

٣٢- ابن وردان، محمد، **تاريخ مملكة الأغالبة**. تحقيق محمد زينهم عزب. مكتبة مدبولي، القاهرة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).

[illegible]:

١- الجيلاني، عبد الرحمن، **تاريخ الجزائر العام**. المط العربية، الجزائر (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).

٢- الحبيب، ناصر، **هذه تونس**. ط تونس (١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م).

٣- حقي، إحسان، **تونس العربية**. مط دار الثقافة، بيروت (د.ت).

٤- خطاب، محمد شيت، **قادة فتح المغرب العربي**. ط دار الفكر العربي، بيروت (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

٥- زغلول. د. سعيد. **تاريخ المغرب العربي**. ط منشأة المعارف، الإسكندرية (١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م).

٦- زيادة، نِقولا، **مدن عربية**. دار الطليعة، بيروت (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

٧- زيتون، محمد، **القيروان ودورها في إزدهار الحضارة العربية**، دار المنار القاهرة، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)

٨- الزركلي، خير الدين، **الأعـــلام** .. مط دار العلم – بيروت (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م).

٩- سالم، د. السيد عبد العزيز تاريخ المغرب العربي الكبير. ط دار النهضة العربية، بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

١٠- ضيف، د. شوقي، **تاريخ الأدب العربي**، مط دار المعارف، القاهرة (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

١١- العبادي، د. أحمد مختارِ، **في التاريخ العباسي والأندلسي**، دار النهضة العربية، بيروت (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

- **في تاريخ المغرب والأندلس**. مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية (د.ت).

١٢- العربي، إسماعيل، **دولة الأدارسة، ملوك تلمسان وفاس وقرطبة**. ط بيروت (د.ت).

١٣- عبد الوهاب، حسن حسني، **خلاصة تاريخ تونس**، دار الكتب العربية، القاهرة (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م).

١٤- علام، عبد الله علي، **الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي**، مط المعارف، القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٥- العروي، عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**. ط المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).

١٦- ابن عامر، أحمد، **الدولة الحفصية**، دار الكتب الشرقية، تونس (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م).

١٧- العبادي، د. أحمد مختار، د. السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**، دار النهضة العربية، بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م).

١٨- عبد الوهاب، حسن حسني، **ورقات عن الحضارة العربية التونسية**، مكتبة المنار، تونس (١٤٠٢هـ/ ١٩٥٩م).

١٩- الغناي، مراجع عقيلة، **قيام دولة الموحدين**، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٢٠- فروخ، د. عمر، **العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط**. المكتب التجاري، بيروت (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م).

٢١- فكري، أحمد، **المسجد الجامع بالقيروان**، دار الطباعة، القاهرة (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م).

٢٢- القصاب، عبد المجيد، **رحلة إلى تونس**. مط العاتي. تونس (١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م).

٢٣- كنون، عبد الله، مدخل إلى تاريخ المغرب. تطوان، المغرب (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م).

٢٤- كرو، أبو القاسم محمد، عبد الله الشريط، **عصر القيروان**. مط دار المغرب العربي، تونس (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).

٢٥- ميلاد، الحكيم أحمد، **تاريخ الطب العربي التونسي في عشرة قرون**. مط الاتحاد التونسي، تونس (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م).

٢٦- موسى، عز الدين أحمد، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**. دار الشروق، بيروت (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

٢٧- الميلي، مبارك بن محمد، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**. ط الجزائر (د.ت).

٢٨- محمود، د. حسن أحمد، **قيام دولة المرابطين**. صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى. ط القاهرة (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م).

٢٩- موسى، عز الدين عمر، **الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم**، مط دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م).

٣٠- المطوي، محمد، **السلطنة الحفصية**، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).

١- ارشيبالد، لويس، **القوة التجارية والبحرية في حوض البحر المتوسط**، تعريب أحمد محمد عيسى. دار بيروت (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)

٢- اشباخ، يوسف، **تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين**، تعريب: محمد عبدالله عنان. ط القاهرة (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م).

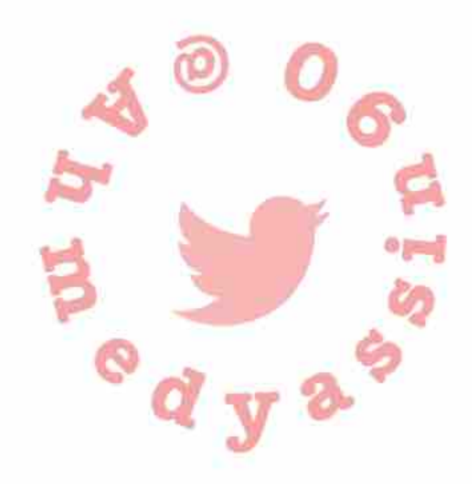
٣- برنشفيك، روبار، **تاريخ أفريقيا في العهد الحفصي**، تعريب حمادي الساحلي، ط بيروت (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م).

٤- بروكلمان، كارل، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تعريب: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ط دار العلم، بيروت (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م).

٥- جوليان، شزا، **تاريخ أفريقيا الشمالية**. تعريب مزالي، البشير بن سلامة ط. تونس (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).

٦- الشريف، محمد الهادي، **تاريخ تونس (من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال)** تعريب، محمد الشاوش، محمد عجينة. دار سراس للنشر (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م).

٧- هوبكنز، ح. ف. ب، **النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى**. الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا (١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م).


@Ahmedyassin90



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90